عيون البنفسج

علاء الديب

عيون البنفسج

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى :   التقنيه : زيت على قماش

مقاس العمل : ٩٨× ٩٨   رقم السجل : ١٢٢١١

أحمد فؤاد سليم (١٩٣٦)

فنان بارز من فنانى الطليعة المرموقة فى الستينات.

له دور لايمحى فى تشكيل وتنظيم تجمعات الفنانين ، فضلا على دوره المرموق كمنظم عروض من الطراز الأول .

وهو فنان متعدد الجوانب فى التصوير والرسم والعمل الثلاثي الأبعاد ، والشعر ، كما عرض تجارب ضئيله في مجال الحفر ، فضلا عن دوره الفريد في حركة نقد الفن في مصر. تميزت مرحلتيه الأخيرتين في السنوات العشرين الأخيرة بالتجريديه الغنائية التى تعتمد تفكيك الأسطح الى خطوط قزحيه مع حرصه على إحداث صدمات قاطعة مختارا لعمارته محاور ذات مراكز متباعدة غير تقليدية ، وأما تجربته الحالية فهو التأكيد على فكرة العلاقة الثلاثية ذات الجوهر الواحدى بين الروح والجسد والنفس.

، فكل لوحة هى جسد ولها نفس تدخل إليها وتخرج منها ـ وأما الروح فقد أختار سليم لها معادلاً موضوعيا ثلاثي الأبعاد وثبته خارج إطار الصورة ـ وهو ماجعله يلجأ الى توليفات عديدة من مواد غير تقليدية وضعته كواحد من رموز الحداثه الجديدة فى حركة الفن المصرى الحديث .

قطاع الفنون الشعبية

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

عيون البنفسج
علاء الديب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

مقدمة

«تامر فكار» شاعر مصرى من مواليد ١٩٧٥ بالسنة النهائية بكلية الآداب قسم فلسفة.

ولد فى الخليج، ابن منير فكار أستاذ الجامعة السابق (رواية أطفال بلا دموع) والسيدة سناء فرج (رواية قمر على المستنقع).

هذه بعض من اعترافاته وصور من حياته، أضاف إليها الكاتب أشياء قليلة من عنده.

(١)

خرجت مسرعا صباح الجمعة قبل الصلاة حتى لا تحاصرنى فى شقتى أحزان الوحدة الخانقة. شوارعى القديمة فى القاهرة فى فصل الخريف بها لمحة من جمال لم يقتله بعد تلوث البيئة. أهرب إليه، لكنه يراوغنى وتنتهى الشوارع دائما إلى غبار جاسم.

لو أن لى من العمر ألف سنة لما تحركت ثقيلا هكذا، فاقدا للحماس، هل هى آثار الليلة الماضية، والكيوف المختلطة والدخان الذى لاينقطع، أم هو الثقل المعتاد والإرهاق الذى لامبرر له الذى أشعر به كثيرا فوق قلبى.

جسدى الآن لاحدود له، لا خطوط خارجية تفصل بينى وبين الناس، لا ملامح ولاهوية. فى أية لحظة قد أتراكم أشلاء بشرية

إلى جوار حائط يعبرنى مارة مسرعين. صارت الشوارع مهدرة الطابع والمعنى.

فدخلت إلى مقهى «الاستقلال» القديم الواسع. كل يوم يزداد قذارة وإهمالا. الزجاج الواسع العريض قذر وتحت الكراسى والمناضد تراكمت الأوراق والطين وقذارة الزبائن العابرين.

رائحة الدخان العطن والخمر الرخيصة التى تقدم فى الركن الداخلى مختلطة مع رائحة دورة المياة التى لا تصلح ولا تنظف أبدا هبت على وألقت بى على مقعد مجاور للباب.

جئت إلى هذا المقهى مرة وأنا صغير مع أبى وشربت مشروبا أحمر باردا فى كوب كبير، كان مكانا كبيرا جميلا مفتوحا والشمس تسقط على البلاط النظيف.. ابتسم الجرسون العجوز يومها فى ود وحرارة.

إلى نفس هذا المقهى، رجعت طوال عمرى، عندما صرت وحيدا فى هذه المدينة المرعبة، رجعت إليه دائما كما تهرش فى جرحٍ قديم.

الآن.. فراغ موجع يعشش بين اللحظات.. قطع من «الدمينو» الأبيض المعدول والمقلوب. تخطف عيونى وقلبى، وتعود تتناثر أمامى من جديد.

جلست فى المقهى منهكا وحيدا أنتظر فى - لا مبالاة - كيف سيمضى بى النهار.

(٢)

أشترى كل بضعة أيام قلما جديدا، أخيرا أهدانى «حسين» قلما جديدا وقال: لا أظنك ستكتب به شيئا له قيمة، أتأمل هذا القلم الأسود كثيرا. تنتابنى ـ أحيانا ـ رغبة فى أن أسحقه مثل عقب سيجارة. فى القلم خاصية سحرية غريبة: هو يستدعى حسين دائما للحضور.

عندما يحضر صديقى تنتابى تجاهه مشاعر مختلطة أكون فعلا مشتاقا إليه، ولكن شيئا فى وجوده يضايقنى، كأنه يعطلنى عن عمل مهم، أو لعلنى أدعى ذلك. دقائق ويصبح اللقاء حميما جديدا ومفاجئا، خاصة إذا استطاع أن يلف لنا سيجارتين.

فجأة دخل المقهى. وانحط أمامى صامتا، فرد ساقيه الرفيعتين الطويلتين أمامه، وشد جسده على الكرسى فعرفت أنه كتب قصيدة جديدة.

كنت أشعر به متوترا إلى جوارى وأنا أقرأ نفس الأبيات التى كتبت بنفس القلم على نفس الورق بذلك الخط الواضح والمعتنى به، لم أستطع أن أرفع إليه نظرى بسرعة بعد أن فرغت من القصيدة.

كان يقرأ وجهى جيدا، أحسست بأنه يعيد ترتيب نفس الكلمات القديمة وأن لاشئ حقيقى يتكون من ذلك «التفنيط» المستمر لأوراق الكوتشينة.

أنا متأكد أنه يعرف رأيى الحقيقى فى قصائده، كما أظنه يعرف أيضا أنه صديقى وأننى أحبه.

أسترد أوراق القصيدة فى هدوء وأنا أقول الكلمات التى تقال عادة فى هذه المواقف ووقع علينا صمت مريب زاد من كآبة المقهى ومن ثقل تلك الساعات الثقيلة التى تسبق العصر وتعقبه.

اقترح أن نقوم أو أن نبحث عن طعام واقترحت ألا نفعل شيئا.

وبقينا جالسين نقلب فى بعض المجلات ونتفرج على العابرين.

رأيى الحقيقى الذى أخفيه عن حسين كاظم وحتى عن نفسى أن الشعر أقدار مقدرة وأنه طرق ومسالك كتب علينا أن نسيرها ونقولها ونعيشها، الشعر حياة أخرى ألهمنا بها ووهبت لنا، أما كل الرطان والكلام الكبير عن المدارس والحداثة وما قبلها ومابعدها فهى مجموعة من حيل السحرة التى تبتلعها كلمة شعر حقيقية أو بيت وإيقاع صادق نصل إليه.

أخفى اعتقادى هذا حتى عن نفسى وأجد نفسى وسط مشاحنات حمقاء وحوارات عقيمة مجهدة للروح حتى مع حسين إلا أنه الوحيد الذى أستطيع معه أن أضحك حتى تدمع عيناى من كل تلك النصوص والأشعار الفجة التى يكتبها غيرنا والتى تشبه نقوشا كاركاتورية عاجزة عن التعبير.

بعد أن دهمنا المساء ونحن مازلنا على المقهى، انتهت «القعدة» نهاية حمقاء فقد مزق حسين قصيدته الجديدة إلى قطع صغيرة ووضعها فى «الطقطوقة» ودون أن أشعر مد يده إليها بعود كبريت مشتعل.

عندما تصاعد اللهب من القصيدة جاء الجرسون مفزوعا، ولولا أنه يعرفنا لطردنا واتهمنا بتدبير عملية إرهابية فى المقهى.

(٣)

عندما عدت مع أمى من الخليج وبدأت أذهب إلى «مدرسة المستقبل الخاصة» كنت طفلا عليلا متوحدا فى الثامنة. لم أكن أعرف أحدا ولا أريد أن أعرف. أعيش داخل شرنقة جافة مؤلمة تسبب لروحى ألما شديدا ونوبات متكررة من العدوانية والرغبة فى الانتقام. كل وجوه الأولاد والبنات تبدو قبيحة مخيفة.

لم أكن أرغب فى أن أقترب من أحد أو أحدق فى وجه أحد. أسرع إلى شقة أمى فى مصر الجديدة أشرب وجهها وجسدها صامتا، وأدبر مقالب مزعجة لأختى «لمياء» أحسن شئ أن أخلو إلى نفسى أراقب ظل أوراق نباتات الظل التى زحمت بها أمى الشقة.

كانوا يسخرون من لهجتى ومن نطقى لكلمات «الدجاج» و «السيارة» ومن عدم معرفتى بألعابهم ومصطلحاتهم التى كنت أكتشفها بفرح حقيقى واهتمام. لم يسمحوا لى بمكان بينهم وأنا لم أكن أريد. سادت أيامى الأولى هنا معهم عدوانية وإعجابا بشرورى الصغيرة.

الدروس سخيفة جدا والحصص فارغة. أراقب، ونادرا ما أشعر أن مايحدث حولى حقيقى. يعطينى مرضى المتكرر فرصة لأن أتغيب كثيرا، وأن أكون مختلفا وغامضا حتى بالنسبة للمدرسين والمدرسات.

انتابت المدرسة كلها حمى غريبة أعلم أن شخصية كبيرة سوف تزورنا بعد أيام، المديرة والمدرسون والمدرسات والأولاد وحتى المبانى. الترتيبات تلغى الحصص وتوقف الدروس.. لا أفهم سر تلك الغرابة التى انتابت تصرفات الجميع وأخلاقهم. كان هناك شئ قبيح يجب إخفاؤه جيدا، شبكة من خيوط العنكبوت والعلاقات المتعلقة بدروس أو صفقات جانبية كان يتم استبدالها بأوانى زرع، ونخل كالأقزام يرص على جوانب الممرات الرملية الملونة.

الأستاذ فوزى ناشد مدرس الرسم كان هو الكائن الوحيد الذى يثير اهتمامى وأحاول الاقتراب منه. كان رجلا جميلا قصيرا يمتلك هدوءا غريبا وابتسامة ساحرة.

في وسط هذه الحمى الجديدة التي انتابت المدرسة اختار هو مكانا بعيدا في آخر حديقة المدرسة، وأخرج منضدة كبيرة ليضعها في الشمس وملأها بعلب كبيرة من الألوان والأوراق والأقلام. جلس هناك مع بنتين كبيرتين يرسمون صورا ملونة لكي تعلق في المعرض الذي سيقام من أجل الزيارة.

وقفت بعيدا قريبا حتى لاحظني وناداني بيده وابتسامته أن أقترب. أحببت الرجل ساعتها بلا حدود. لم يتكلم كثيرا لكنه وضع أمامي أوراقا وألوانا كثيرة، وابتعدت المدرسة وكأن المكان كله غرق في صمت.

لم أكن أعرف كيف أرسم حتى أمي كانت تقول لي دائما: «شوف لمياء ترسم حلو إزاي» كنت أسرق أوراق رسومها وأمزقها، وأرسم أنا وأمزق أوراقي أيضا، أما يومها فقد كان كل شئ جميلا. الورقة والألوان والخطوط والأشكال تضحك لي وتكاد تتحرك، وقف إلى جواري وقال: ضع ما تشاء من الألوان، النقط الملونة على الورقة تكلم بعضها. هل تسمعها؟ وضحك وضحكت وضحكت البنتان. أمضيت اليوم كله معهم.. أرسم وأرسم إلى الأبد. في آخر النهار علقنا لوحتين من رسمي قرب مدخل المدرسة. سألت المديرة عن من رسم، ووضعت المدرسة الفظيعة اسمي على واحدة. صحبني الأستاذ فوزي أنا وواحدة من البنات

إلى البيت بعد أن أخبر أمى بالتليفون أننا سنتأخر لأننى أرسم لوحات للمعرض.

فى الشارع تحدث إلىّ كثيرا، ووضع يده على كتفى لم يكن أطول منى كثيرا. أخبرنى أنه يجهز أوراقه لأنه سيسافر إلى الخارج بعد أسابيع، على باب الشقة لم أكن أريده أن يذهب.

تمنيت أن يدخل وأن يبقى معى إلى الأبد.

(٤)

شقة «شوقى عامر» كأنها ميدان التحرير أو غرفة الانتظار فى عيادة طبيب مشهور. «شوقى عامر» كاتب ورسام وتاجر لوحات وآثار، هو صديق أبى وزميله الذى لم يعد يراه. الرجل والشقة كأنهما قلب القاهرة، بدونهما لاتكون. عندما لايكون هناك فى الحياة أمل ولا خرم إبرة. هنا أجد كل ماأريد. تعلمت هنا أشياء كثيرة وعشت أشياء كثيرة لم أكن أعرف أن لها وجودا. رسم شوقى قليلا وكتب قليلا ولكنه يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة فى اليوم. حتى وإن أغلقت كل النوافذ، فنافذة غرفة نومه مضاءة أبدا، وبعد كوب من الشاى تجده قادرا على أن يسمع أى خرافات تحملها على قلبك، بعد ساعة يأتى واحد غيرك ويستغرقك الحديث فى أشياء أخرى، ثم تلتفت فلا تجده، عاد إلى فراشه ونام والنور مضاء.

هنا منذ الأبد، فى هذه الشقة القريبة من ميدان الأوبرا ، فى آخر قصر النيل. هو والشقة يتحديان كل المتغيرات. الانفتاح والسمسرة، الحداثة والديكورات الجديدة، التيك أواى. كلها أشياء لاتدخل من باب الشقة وإن دخلت فلابد ستخرج بعد ساعة، هو يقاوم حتى الرمق الأخير دخول التليفزيون إلى شقته. أغلب الوقت تجد الشقة مزدحمة بالناس، ولكنها المكان الوحيد الذى تستطيع أن تكون فيه وحيدا وحرا، كيف استطاع أن يحتفظ بشئ أصيل وكريم فى وسط كل ما يحدث حوله؟ لا أدرى. ربما لأن قلبه على أطراف أصابعه. تشعر به وأنت تسلم عليه، حيث يبقى يدك بين يديه، لفترة لاتطول ولاتقصر. وتتلقاك عيناه الطيبتان المندهشتان.

عنده هنا قابلت «كارين» وأحببتها. شئ كهذا لم يحدث لى من قبل. كل شئ فى حياتى كان يسير بى إلى هذا الحب. بعد أيام قلت لها «رومنتيكى أنا أعلم.. ولكن أليس مايحدث لنا غريبا» لم تكن تتكلم كثيرا. تصيغ جملها فى إنجليزية بسيطة.. تصل إلى روحى من أقرب الطرق، أمر بعيونى على جسدها كأننى ألمسها كأننى أطير.

فى الأيام الأولى والحب مازال مترددا كطائر يتقدم ويفر هاربا.. كان كل شئ يبدو مستحيلا جاءت من بولندا تزور ثلاثة أو أربعة بلاد فى المنطقة، تعد رسالة فى الجامعة بعنوان «الفنان يعمل» تكتب وتصور الكتاب والفنانين وهم يعملون، تكبرنى بست

سنوات، تعرف أشياء كثيرة، حضورها سحرى آسر، وجودها معى بلا ثقل كأنها موجودة من القدم. أغرب شئ كان ذلك الشعاع البنفسجى فى عينيها، لون لم أره من قبل، أظنه غير موجود.

اخترعت لها بينى وبين نفسى اسم «عيون البنفسج» أحببت الاسم وصرت أردده عليها، وأردده بينى وبين نفسى حتى أمتلئ به وأفيض. يغمرنى صوت وضوء مستحيل يتكور جسدى دون ألم، ويغسلنى حضورها برائحة العشب الأزرق.

يومها عاصف ملئ بالنشاط. لم تكن تحب السهر كثيرا. الساعة معها طيبة والوقت صادق، رتب لها شوقى زيارة إلى الفيوم لتزور فنانا هناك، وزيارة أخرى إلى «أخميم» لتعيش أياما مع نساج قديم، لم أسافر معها. قالت إنها لن تفعل شيئا لو كنت معها، أكتب لها كل ليلة وأكرر اسمها حتى تعود.

عندما قرأت لها قصيدة لى قالت: الحركة كل شئ، حتى الشعراء يجب أن يعبروا بالحركة فى قصائدهم. لم أفهم بالضبط ماذا تعنى. لكن عندما خلت حياتى منها ورجعت وحيدا عاريا كنت أبحث عن تلك الحركة التى تختبئ فى قصائد الشعراء فلا أجدها. هى لم تأخذها معها، أكدت لى أنها موجودة. سأبقى العمر أبحث.

القبلة الأولى بيننا لحظة غريبة سجلتها فى التاريخ والشعر والحلم والعمر، عند مدخل الشقة التى تسكن فيها مع زميلتها. نور

بسيط ولا صـوت. شعـرت بلسـانهـا يلامس قلبى. هل أغـمـضت عينى، أم أبقيتـهمـا مفتوحـتين. أكـيد أننى رأيت الدنـيا كلهـا، جبال عالية بعيـدة وشمس حانية تغرب فى آفاق لا أعرفـها، قالت تدفعنى بعيدا عن جسدها الذى يذوب:

ـ غدا.. غدا.. ياحصانى الجميل.

(٥)

الفضيلة الوحيدة التى أظن أننى أمتلكها الآن هى فضيلة الصبر. ليس ذلك الصبر الطيب الذى يتحدثون عنه، ويوصى به المؤمنون. صبرى محسوب ومخطط وبارد. صبرت وخططت لحياتى فى برود قاتل محترف. لكى أصبح فى النهاية وحيدا. لايقدر أحد أن يعتدى على. أو يقتحم تلك الشرنقة المؤلمة التى نسجتها لنفسى.

لا أقصد بأحد شرا. لكننى لا أبالى بأحد. هذا شرى الصغير الذى يكبر أبدا. تضيع خطوطى الخارجية. أعود أستحضرها من جديد حتى لايبتلعنى الزحام الجهنمى الذى لاأفهمه.

يعود يستغرقنى صراع حياتى الأبدى. أبقى عاريا بلا تحقق ولا إنجاز. أحيانا يضمنى ركن، أشعر بإنسانيتى كبرق خاطف،

وعندمـا ينطفئ أعـود لا بالى بشئ. هذا يوم آخـر. دار وانقلب. أجـهدنى البـقـاء خـارج «البيت». منذ سنوات، وشقـتى فى ميدان «لاظوغلى» صـرت أطلق عليـها «بيـتى». أمى أعطتنى هـذه الشقة بلا شروط ولا توابع ولاتعقيدات. قالت: هذه شقة خالك القديمة.. وأنت حر. أول شئ حقيقى قديم له تاريخ دخل حياتى. أسرع إليها أحيانا كثيرة وأغلق الباب والنوافذ ولا أصدق أننى تامر منير فكار.

الليلة وقد إنفض مبكرا سامر المقهى السخيف. أعود عبر شوارع جانبية معلومة، أكرر السير فيها كما يفعل الحمار. أمر على شعبى وجماهيرى. ثلاثة.. أعرفهم، يعيشون دوما لصق الجدران. حولهم قطع قمـاش خلقـة، وأوراق، وزجـاجـات بلاستيك فـارغـة. زهور سوداء. أسحلهم ورائى بالحبال أم أفر منهم رعبا.. لاأدرى.

أعبر قلاع وزارة الداخلية والمباحث والأمن حتى أجدنى تحت تمثـال لاظوغلى نفسـه. هو لايفـشل أبدا فى أن يجـعلنى أبتـسم وأنا أسمعة يصرخ بلهجته التركية فى المارة والعابرين والعسكر الساهرين.

فى مدخل العمارة وجدت الفرح منصوبا.. «تهانى» ابنة الأستاذ عبـاس العازف السابق فى فرقة أم كلثوم تتزوج اليـوم. ولا نقود كافية لفرح فى فندق. انتهت المناقشات والمساومات إلى فرح فى البـيت وزفـة بالسـيـارات على كـوبرى أكـتـوبر. سـمـعت بعض المناقـشـات وحكى لى هو البـعض الآخـر. كـان الرجل القـديم، ذو التـاريخ والأسـاطيـر، يذوب كل يوم فـى ظل زوجـة تزداد كل يوم شراسة يرعيان ابنتهما «تهانى» العاطلة من كل المواهب.

المدخل الرخامى «الضيق» مفروش بنشارة خشب خضراء، وبقايا المدعوين حول الأستاذ عباس الذى يبدو أنه أسرف فى الشراب يرقص مذبوحا من الألم. ويدفع ابنته فى النهاية إلى داخل سيارة ملونة.

أحكمت إغلاق بيتى. مكتفيا بما يتسرب لى من ضوضاء وضوء. ليس فى الشقة منذ مدة حياة. صالة وغرفة واسعة كئيبة يغطيها التراب.

أتركه يتراكم كأنه يغطى وجهى ولا أريد أن أمسحه. مع الإرهاق والضيق المتصاعد والدموع المتحجرة المستحيلة أفتقد «كارين» جدا. أفتقد ضوء عيونها. عيون البنفسج. يمتلئ جسدى بغيرة حمقاء. يصرخ لى وجهها الحبيب بنداءات غير مفهومة، ثم يغيب عنى فى أحراش بعيدة. عام وبعده عام. أحسبها يوما يوما. غيابها حاضر وقاس، ونفسى شتات.

ألقى بنفسى وحدى على السرير. أخاف أن يكشف أحد عورتى.. فراغى الذى أشعر به. أن يضطلع أحد على لاجدواى. أن أعلم ويعلم الناس أننى غير ضرورى.

هناك دائما من يترصدنى. يظهر لى فجأة أراه أمامى دون ضوء ولا مرآة.

يختفى فجأة، ويظهر فجأة.. ويتركنى وحيدا، أعانى استمرار الحياة.

(٦)

طالب فى الجامعة ولست طالبا. أشرفهم بزيارتى يوما وأنسى أمرهم لشهور. حتى الامتحانات هناك أعذار وشهادات مرضية. ليس ورائى أحد. من يعرفون أبى من الأساتذة القدامى اقتصرت علاقتنا على ابتسامات باهتة نتبادلها عن بعد وسط الزحام.

الجامعة التى أسمع عنها أو أقرأ عنها فى الكتب مكان غير موجود الآن.

الآن هى عربة أتوبيس مزدحمة. أو حى عشوائى من الذى يتكلمون عنه فى الجرائد. كنت فى البداية أحضر محاضرات. وأبقى فى المكتبة حتى الليل أقرأ وأراقب الدخول والخروج. وسط هذا الزحام تأكد لى أننى بلا جذور. معلق فى الهواء. بلا أب أو أم

أتحدث عنهما. ليس لى طبقة ولا طموح هنا. دخلت مع الأخوة الإسلاميين وخرجت من نفس الباب الدوار الطارد الذى ينتهى حيث يبدأ. لى دينى الخاص وفهمى الذى لايهتم به أحد. ربما أنا لا أعرف كيف أقوله. العدوان على حرية الآخر يزعجنى ويدمرنى بلا حدود. عدوان الضعفاء على بعض يثير الفزع.

تقريبا لم أخرج من سنوات الجامعة الثلاثة - الأربع الآن - سوى بصديقى الشاعر حسين كاظم. يومها كان هناك تجمع أمام مبنى الإدارة لسبب سياسى لا أذكره. وجدت نفسى خارج دائرة الإسلاميين التى تحتل قلب التجمع.

استندت إلى سيارة وأخذت أراقب الوجوه الغاضبة المهتاجة.

وجدته إلى جوارى مستندا إلى نفس السيارة يدخن سيجارته بنهم.

بدأ بيننا حديث مازال ممتدا. كنت أحسدهم على الحماس والاهتمام وكان هو يسخر من الشعارات القادمة من المتاحف كما يقول. هو طالب فى كلية الحقوق، ناصرى، اشتراكى. كنت أغيظه وأقول: أليست شعاراتك وأفكارك هى الأخرى صارت إلى متاحف التاريخ؟.

ربما لأنه فقيرا جدا، أو لأنه يعيش وسط أسرة مزدحمة بالإخوة والأخوات. فى شقة ضيقة فى امبابة. ربما لأن أباه طاغية، مازال يضربه حتى الآن. ربما لأنه لايجد مكانا يتنفس فيه أو يمارس عادته السرية. ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة كنت أشعر عندما

أراه غاضبا على كل شئ، يتهم الحكومة والبلد، ويسب الدين: أشعر أن كلامه دخان يتصاعد من قدر يغلى. كان مأزوما حادا. لايرى لحياته مخرجا أو طريقا.

لأنه صار بعد فترة صديقا، فإننى لم أعد أشفق عليه أو أرثى لحاله. كنت أعيش معه دون أن أشعر بضيق حياته المرعب. حاولت دون ادعاء أو أوهام أن أحمل عنه شيئا.

يعود دائما للسياسة، ويتحدث بغضب عن الواقع والفقر. أرى من خلاله أشياء لم أكن أتصور أنها موجودة. واقعه غريب وقاس يخوض فيه ليل نهار. أحاديثه تدفعنى إلى أن أشعر أننى فى مكان غريب محاط فيه بناس لا أعرفهم يتدافعون فى الجامعة والأتوبيس، والشوارع والأسواق.. ما الذى يجمع هذا الحشد حقيقة. هل نحن ـ جميعا ـ مصريون.

أمارس معه رزالة أخرى فأقول مستفزا: أنا لم أعد أعرف ماذا يعنى أن أكون مصريا؟ وأندفع أكثر قائلا: هل تستطيع أن تقدم لى تعريفا للوطن؟

أشعر به يتكسر تحت وقع كلامى المستفز، ويندفع يحدثنى عن أشياء مكررة كثيرة ومختلطة: عن النيل والناس وقرى الصعيد، وعن فؤاد حداد الذى يعشقه، وسيد درويش الذى يردد أغانيه.

وحدى بعد أن ينصرف حسين أجدنى مشتاقا إلى شارع يمتد وسط قرية مصرية قديمة. أو مقهى رطب فى حارة هادئة ظليلة.

(٧)

«الموزة» فى المصطلح هى الفتاة التى تخلع ملابسها فى أول لقاء. المهندس باهر زميل المقهى كان زعيما فى قنص هذا النوع من البنات. يترك كل ما فى يده ويتفرغ تماما للعملية حالما يبدى أحد الأصدقاء رغبة أو حتى يفكر فى الموضوع.

هو وعربته الفولكس الصغيرة جاهزان دائما لتنفيذ العملية وتجهيز ماتقتضيه من مستلزمات بحماس مذهل.

مشكلة حسين أنه دائما مفلس. أما أنا فأكتفى غالبا بصفة مراقب. أشارك فقط عند الضرورة. باهر لم يتأخر عن بث الحماس فى المشروع، وانطلقت الفولكس بنا نحن الثلاثة صاعدة إلى المقطم القديم.

تمت العملية. انضمت إلينا «غادة» بعد لحظات. شرطها الوحيد كان أن نصحبها إلى تاجر البرشام والمزاج فى بطن «قيتباى» قبل أن نذهب إلى أي مكان.

لم أكن أرحب بهذه اللقاءات كثيرا فى شقتى لأسبابى الخاصة وللجيران القدامى. أشعر الليلة بلا مبالاة، ورغبة بليدة فى أن أشعر حولى ببعض الإثارة والعنف.

وكما توقعت تماما، ما ان سخن الشراب وارتفع الإيقاع، حتى وقع باهر مع حسين. كادت المسألة تقلب غم. أخذت حسين جانبا وجلسنا فى الصالة أخذ يهذى فى غضب. وعلى صدره جبال من الحزن. يكتم بصعوبة بكاء دفيناً. ويتلظى بنار الإحباط والكبت والكرامة المهدرة.

تحامل حسين على نفسه وانصرف متعثرا فى ساقيه الطويلتين. أخذ يؤكد لى أننا سنناقش «المسألة» ضرورى غدا فى المقهى.

صرت وحدى فى الشقة مع زوج من الحيوانات الغائبة عن الوعى. لها عشرات الأيدى والسيقان. تصاعدت غصة فى حلقى.

أخذت شرابى وخرجت إلى «البلكونة» الرفيعة التى تطل على الميدان. قلاع الحكومة ومبانيها مضاءة ضخمة، والميدان خال من الحركة. حسبت «لاظوغلى» غادر قاعدته وذهب يقضى حاجته.

أغلقت الشيش عليهما، ومازال الفحيح والعواء يصلنى حتى بعد

أن استدرت ناحية بيوت وعمارات القاهرة القديمة. تحول الغبار فوقها إلى ستائر من دخان يتكسر عليها ضوء الليل الذاهب.

كبذرة مرة وسط ثمرة فاكهة. تعذبنى فكرة الطهارة. أن أغتسل وأغتسل من الخارج ومن الداخل حتى أذوب. أن أهجر. أن أسافر. أن أتوحد واعتزل إلى الأبد.

أريد أن أهرب من مصير الأرواح الملعونة الساقطة إلى الأبد إلى قاع الجحيم. كان «أبى» وسط هذه الأرواح يستصرخنى. ولم أكن أستطيع له شيئا.

فى الداخل: جمع «باهر» الغنائم وانصرف، تاركا فى الشقة فراغا كثيفا وقذرا.

بين الصالة والبلكونة أنسج من آخر خيوط الليل فجرا من البنفسج بلله الندى.

يتبرعم له قلب أحمر وقان. صبح كأنه قمر، سيطر على سماء وجودى الصامت.

لماذا تقهرنى دائما جيوش الليل سريعا هكذا.

(٨)

محافظ الإسكندرية، هكذا يطلق عليّ أصدقائى عندما أبهرهم بمعارفى بحوارى الإسكندرية وشوارعها الجميلة، والمطاعم والحانات التى مازالت تعمل فى قلب أحيائها القديمة.

وثام نفسى نادر تصنعنى فيه هذه المدينة العبقرية. لذلك أخذت قطار الثامنة صباحا وغادرت القاهرة.أحشاؤها تكاد تنفجر. فى القطار يهدأ الإرهاق والخوف والقلق قليلا. أسلم نفسى لسرعة منتظمة ومكان بعيد عابر؟

المدن المزدحمة التى أعبرها فى لحظة، لا أكاد أتبين أسماءها، تصيح بى أن الانتماء لأمر أو مكان أصبح - بالنسبة لى - شيئا مستحيلا.

الإسكندرية فى حياتى كأنها «كارين» حبيبتى، عيون البنفسج، لها نفس اللون والضوء المستحيل. تنعش كيانى ولا أشعر بثقل لها.

أمى هجرت الجميع، وسكنت هناك مع زوجها «هانى قبطان» مليونير آخر الزمن. أزور الإسكندرية ولا أراها، حتى بعد أن مات الرجل من جرعة هيروين زائدة.

لى فى الإسكندرية البحر، شواطئه الخالية البعيدة فى الشتاء. ودائرة الماء الأسطورية فى قلب المدينة، كأنها هبطت من القمر، أمتلكها وأهبها من أشاء.

لى فى الإسكندرية - أيضا - «نجية» مربيتى السوداء. حضنها وصدرها الباذخ المكان الوحيد الذى أدفن فيه وجهى وأغلق عينى، فكأننى لم أتعذب أبدا ولم أولد بعد.

عندما تم تدمير أسرتنا من الداخل وتفرقت شظايا اختفت نجية فى الأدغال. بعد سنوات وجدتها ولم أفقدها أبدا.

وجدتها فى بيت داخل حوارى «بحرى». بيت رفيع أبيض محشور بين عمارات صغيرة بذيئة. كأن البيت بنى عليها باليد وهى بداخله. تسكن فى غرفة مسروقة بين الطوابق. لها نافذة واحدة طويلة، يدخل منها ضوء بنفسجى رقيق تستقبل دوما نسيم البحر.

هى لاتكاد تخرج، لكنها ليست وحيدة، بقايا الأهل والجيران يرعونها عن بعد. أصابعها جميلة ووجهها يزداد مع العمر بهاء

ِرضا. مـازالت مليئـة باسمـة، تتحـرك فى ليونـة قط جميل من لسرير إلى الكنبة تحت النافذة الواحدة الطويلة.

شيخـة بلا زحمـة مـريدين. أنا مريدها الوحيد، أزورها كثيرا ـ ـلا بعض «الهريسة» وزيوتا عطرية للمفاصل.

رغم أن أمـى تعيش فى الإسكندرية إلا أننى لا أفكر فيها هنا. لا أز رها إلا للضرورة. قطع من حياتى معها تحرق جلدى أحيانا. و ه أعرفـه يضيع منى فى الزحام. قـصيدة قديمة حاولت أن أن بها ـ ومازلت أحاول ـ عن جيوش من النمل الصغير تفترس فر مة وهى بين الحياة والموت. أفكر فى القصيدة عندما أفكر فى أمى.

وقصيدة أخرى لا أعرف كيف أكتبها عن «عروسة ملونة» م نقة داخل علبة من البلاستيك، شفافة ضيقة، لاهى تستطيع أن تا رك ولايستطيع لمسها أحد. ما أبشع حياة النساء. وأنا أغادر ذ ة تسألنى دوما وهى تسوى شعرى بأصابعها الجميلة: هل تسأل ء أمك؟

خـيـول الليل المتـأخـر والـفـجـر تفـرحنى.أصـحـاب عـربات «ا نطور».

ا عرفهم رغم ندرتهم الآن. أعرف الأصحاء منهم والمرضى. و رف أصحابهم الطيبين والخبيثين والذين لم يعودوا يبالون ب ئ. صادقتهم أنا و «كارين» ونحن ننزل فى اللوكاندة الرخيصة القديمة التى تطل على البحيرة الأسطورية فى ميدان الرمل.

كان القمر شتـويا رائعا يصارع سحبا قوية ملونة . قفزت من شرفة حجرتى إلى شرفتها. كانت سعيدة كطفل، وراقبنا الخيول والقمر. سألت هل يمكن أن تأخذ هذه البحيرة معها؟ كم يصبح الإنسان خفيفا عندما يلقى فى الهواء بكل مايحمل من حزن ورثاء لنفسه.

«فى الصباح، كنا نسير على شاطئ البحر. نقبض بأيدينا على حوار قديم:

ـ أتحبنى..؟

ـ أحبك..

(٩)

أختى «لمياء» ضاعت منى هى الأخرى. سقطت فى بالوعة: تزوجت «ابن الباجورى» التاجر الأشهر. كأن أحدا لايتعلم. يكررون فى حمق نفس الأخطاء. ولا يتعلمون من رأس الذئب الطائر. يخطف أبصارهم بريق الذهب فلا يرون شيئا. ويرتبطون بأوغاد يمتلكهم المال ولا يملكونه.

لمياء رفيقة الصبا. تدربت فيها على التعامل مع الآخر. قريبة جدا منى. مختلفة تماما عنى. ليس فى الجسد فقط ولكن فى الروح وفى التعبير عن النفس وفى الصلة بالعالم. حركتى فى الدنيا إلى الخارج، أما هى فقد كانت تتحرك صوب عالم سرى غامض فى داخلها.

أنا دائما الطفل العليل صحيا. أمرض مرة أو مرتين فى الشهر.

أما هى فقد كانت طول عمرها: هشة، قابلة للكسر. مدمنة محترفة للبكاء. جميلة وضعيفة كريشة سقطت من طائر غريب.

حفل زفافها الأسطورى كان المرة الأخيرة التى اجتمعت فيها عائلتنا غير المقدسة فى مكان واحد: أبى وأمى والعروسة لمياء وأنا. الشرط الوحيد الذى أرسل إلى أبى مع دعوة الفرح، التى أرسلت باليد مع مخصوص إلى «بركة السبع» حيث يقيم كان: هو أن لايصحب معه زوجته الجاموسة الفلاحة كما تسميها أمى.

واحدة من الخدمات القاتلة التى قدمها «المجحوم» هانى قبطان زوج أمى البائد كانت إصراره وتدبيره لهذا الزواج المشئوم. لم تكن لمياء قد جاوزت الثانية والعشرين، ولم تكن قد أنهت دراستها فى كلية التجارة بعد.

وافقت الغبية الحمقاء. طمعت وسالت إفرازاتها الأنثوية. سحبها ابن الباجورى إلى الجحيم الجديد المكيف الهواء. عندما وجدت وقتا لكى تسألنى رأيى قلت: «أنت حرة.. اسألى بريد الأهرام»!.

هل كنت أستطيع أن أقف فى وجه حماس أمى المندفع الذى انتقل إليها هى وقادها إلى هذا المصير. قادتهما النقود الضخمة، مغمضتين، فاقدتى القدرة حتى على القلق أو التفكير أو التردد. كانت القوة أكبر منى ومن أى شئ. لم تكن تسحبهما وحدهما.. كانت تسحب الدنيا كلها.

قلت لها أكثر من مرة وهى فى غمرة الاستعدادات أن الرجل غبى وحيوان، وأنه رغم النقود التى تسيل منه: بخيل، وأنانى، وأنه لا يرى فى الدنيا كلها شيئا سوى نفسه. لكنها كانت تدور فى فلك أمى وفلك هانى قبطان. بينما أدخل أنا أكثر وأكثر إلى شرنقتى الجميلة المؤلمة، التى أصبحت مادة لحملة سخرية يقودها ضدى زوج أمى الوقح، مؤكدا لهما وللجميع أننى فاقد للهمة وللطموح فاسد الرأى وأن حكاية الشعر ستحولنى إلى صعلوك لا قيمة له.

حفل زفاف أختى لمياء كان مؤلما جدا بالنسبة لى.

بكيت وأنا أراها فريدة رقيقة وجميلة، يسحبها زوجها وحرسه ورجاله المتشابهون لكى تذبح وتقطع وتعرض فى «الفتارين». لا أحد يعترف بمسئوليته عما يحدث. نضحك، ونحتفل، ونزف العروس.

لا أحد يرى الجريمة أو يوقف السكين أكبر جرائمى ارتكبتها فى هذه الليلة، لأنى لم أتقدم فوق رءوس الجميع وأنقذ أختى. ها أنا الآن غير قادر على إنقاذها.. أو حتى مواساتها. ضاعت لمياء ولا عزاء.

هى تسكن الآن شقة غبية واسعة مزدحمة بالأثاث والصالونات وترى النيل. تحيط بها غابة من العمارات العالية، فيها كل الشقق خالية، فارغة من الحياة ومن الناس. لو صرخت أختى حتى الصباح لما أنقذها أحد. وحيدة مع الفأر الذى أنجبته وأحاطته هى وأبوه بمئات اللعب الباردة المستوردة.

لم يمض على زواجها شهور حتى تحولت لمياء إلى جهاز لإرسال الاستغاثات فى كل الاتجاهات: أمى، هانى قبطان قبل أن يموت فى فضيحته المفاجئة المكتومة، وأنا والمعارف الكبار، وحتى المسئولين فى الدولة.

كان يفعل بها كل شئ، من الضرب إلى الطرد فى منتصف الليل حتى اصطحاب النساء إلى سريرها. يقدر دائما أن يكتم صراخها وأنفاسها، ليعيدها محظية شرعية منتهكة. يواصل تعذيبها فى فنادق فاخرة وقرى سياحية. لم يعد أحد يسمع استغاثاتها فسكتت صارت أخبارها معتادة كجرائد الصباح.

الآن تأكل نفسها ووقتها وتدفن نفسها فى النوادى والمحلات والسيارات المكيفة التى تنقلها إلى لامكان. عندما أمضى معها ساعتين وحدنا، ألاحظ كم أصبحت تكره جسدها الرقيق الذابل مذعورة تقذف بأشيائها القريبة ولاتكف عن التدخين.

يستفزها سكونى واستظرافى، والقصص التى أستخرجها من طفولتنا، أو من الأماكن الغريبة التى أرتادها. تضيق بى وتحسدنى. روحها خامدة. تزداد يوما بعد يوم تشتتا وغباء. أفشل فى أن أثير حماسها لشئ ولا حتى لمشاكساتنا القديمة.. منذ سنوات لم أر لمياء تضحك.

قرب الظهر، وجدتها وحدها فى الشقة الكبيرة تشرب قهوة وتبكى. زوجها سافر فى داهية، ونجحت هى هذه المرة فى أن

تبقى هى وابنها خارج الركب الذى يتحرك فيه دوما. أخذت تحكى وتتكلم وتبكى كما تشاء. ثم خمدت مرهقة، عجوز، وبعيدة. لم أستطع أن أفعل لها شيئا. تريد أن تسحبنى كما يفعل الغريق إلى بحار من الفراغ والكآبة والصمت. تسحبنى إلى بؤس قاتل. انتفضت منصرفا وأنا أقول لها: لمياء.. الانتحار هو الحل. الانتحار أو الطلاق المستحيل..

(١٠)

كهف الدكتور منير فكار الذى يخرج منه الناس بالمجوهرات والذهب والفضة أغلق علينا جميعا. لم يعد يخرج أو يدخل منه أحد. انتهت من حياتنا القصص والأساطير.

يعيش أبى قرب «بركة السبع» فى بيت كبير مبنى بالطوب الأحمر يطل على طريق نصف مرصوف، له حديقة خلفية، يزرع فيها خضارا وموالح، إلى جوار البيت جراجات للمقطورات الثلاث وحظيرة كبيرة للدواجن والماشية. البيت دائما تحت الإنشاء.

هو وزوجته «سكينة» مشغولان دوما حتى مابعد صلاة العشاء بالحسابات وإدارة شئون السيارات والحظيرة والأنفار.

مات أبى تقريبا ثلاث مرات إثر أزمات قلبية حادة، أجرى بعدها عملية كبيرة فى القلب. تداخلت أزمات القلب مع أزمات

شركات الاستثمار، وضاعت فلوس الخليج، كان هو يزداد قوة. بعد الجراحة الأخيرة، وزواجه وانتقاله النهائى إلى بركة السبع عاد بالنسبة لى شابا نضرا فى مقتبل العمر. إنه بعث رجلا آخر غير الذى أعرفه.

فى الحقيقة أنا لم أعرفه قط، كنت أسمع عنه فقط. من أمى ومن لمياء، ومن شوقى عامر وباقى الناس. أذكر طفولتى المبكرة معه، ولكنها صور عنيفة مختلطة. كبرت وسيرته فى البيت موضوع خطر غامض، يثير دائما ردود فعل عنيفة ومختلطة. عندما دخل هانى قبطان حياتنا وتزوج أمى وغاب بها فى بحاره القذرة، لم يعد أحد يذكر أبى، صار الموضوع محرما. أخذت أبى إلى داخلى كى أنفرد به. لم أكن أريد أن أحكم عليه أو أحاكمه. كنت أريد أن أجده. أن أتعرف عليه أفتقده أحيانا كثيرة. وأغضب منه وعليه ثم أعود فأراه وحيدا مطرودا، يسير فى شارع موحش بلا نهاية.

كيف يمكن أن يرى الإنسان كل ماحدث.

استطعت أن أحصل على كتبه القديمة التى جمع فيها محاضراته عن الأدب العربى. جمعت من مجلات الخليج ومصر مقالاته. احتفظ بها وأعيد ترتيبها وقراءتها. عثرت أيضا على قصائد قديمة له نشرها فى شبابه. فى قلب هذه الأوراق كانت «رقصة الديك» قصته ومشروع المسرحية التى لم تكتمل، تحتل

المركز. مشروع حياته. أعيد قراءته وأفك رموزه، وأعتقد أنه عمل عبقرى لم يلتفت إليه أحد.

عندما أراه الآن وأحاول أن أذكر شيئا عن كتاباته أو كتبه، أراه يبتسم ابتسامة شاحبة خجولة، ويشرد بعيدا عنى ويسرع كى يغير الموضوع. استقرت علاقتنا، ولم أعد أراه إلا عندما يستدعينى. يحرص فى كل مرة نلتقى فيها على أن يعطينى كميات مختلفة، ومحترمة من النقود، يضعها فى يدى أو جيبى صامتا وكأنه يعتذر أو يسدد دينا قديما.

عرفت أنه يحصل على نسخ من قصائدى القليلة التى نشرت ولكنه أبدا لم يعلق عليها أو يذكرها. زوجته سكينة هى التى كانت تقول لى. تقول أنه يقرأها لها أحيانا.. وهى لاتفهم منها أى شئ.

وهو بعيد عنى، أبنى معه حوارات طويلة. وأتخيل حديثا حميما طويلا لايحدث أبدا. عندما نلتقى سرعان مايتوتر الجو، غالبا ماينتهى بخلاف فأغادر غاضبا أو يختفى هو فى مكان من البيت بعيدا متشاغلا بشئ عارض.

وجدته يتشاجر مع واحد من سائقى المقطورات، وصوتهما يملأ الدنيا. كان يشتمه ويتهمه بإهمال جسيم، وبأنه لايقدر النعمة التى يعيش فيها، وأنه يعض اليد التى تساعده وتفتح بيته. كان غاضبا مهتاجا كما لم أره من قبل. عندما حاولت التدخل أسكتنى وكأنه يهش كلبا غريبا.

غادرت البيت مسرعا رغم محاولات سكينة استبقائى للصباح تركت البيت ورائى يتصاعد حوله غبار كثيف تثيره الجرارات والمقطورات التى تقتحم الطرق الضيقة بين الحقول.

فى بركة السبع كان الوقت متأخرا والنداءات تتصاعد فى ميدان المحطة: مصر.. مصر.. واحد مصر.

(١١)

ضوء عينيها البنفسجيتين تحت النجفة الخشبية القديمة فى شقة شوقى عامر، يظل هو المدخل الملكى لعالمى الذى أعيشه مع كارين. الكلمات التى كان يجب أن تقال لاتزال حارقة، وما قلته يبدو دوما ناقصا وليس كما ينبغى.

فى الصالة الواسعة، حول المنضدة المربعة الكبيرة، راقبتها تتحدث مع شوقى عامر عن عملها. كانت تقول له : أن تحول المشاعر الغائمة فى مسائل الفن إلى كلمات محددة واضحة صعب، ولكنه ممتع مثل التعبير عن الحب.

ابتسم الرجل العجوز الجميل موافقا، وقام ليتركنا وحدنا إلى المنضدة. سحر كارين يكمن فى أن عندها دائما شيئا حقيقيا تقوله أو تفعله يجعلها دوما مختلفة عمن حولها.

في الشقة ثلاثة شبان يحومون حول كارين ويحاولون شد انتباهها، خاصة ذلك المخرج المسرحي الذي اسمه عبداللطيف، والذي تقول هي عنه إنه يذكرها بفرشاة الأسنان أخذ يشرح لنا في وسط الصالة صعوبة تدريبات الممثل التي كان يدرسها في برلين : يسير على أربع، ثم يرقد على البلاط، ثم ينتفض فجأة قافزا في الهواء حتى تحولت الصالة إلى سيرك سيريالي، حول شوقي عامر الذي ظل مشغولا بتخطيطات مبدئية للوحة يعمل فيها منذ سنوات لا شئ يفاجئه أو يزعجه. يرفع عينيه المندهشتين ثم يعود إلى ما كان فيه.

يذكر لي تفاصيل قديمة عن علاقته بأبي، فكأنني أراهما صديقين معا. وأرى قاهرة الخمسينيات والستينيات. هو اعتقل لسنوات مع الشيوعيين. وخرج بلا تشوهات في فكره أو روحه. أظن أن علاقته الطبيعية بالفن والرسم هي التي مازالت تحميه من كل شئ. لا أشعر أبدا أنه عجوز، فقط عاش أكثر وعرف أكثر.

هو من القلائل الذين لا يكرهون أبي. يحمل له مودة تسعه مع مئات غيره من الذين تحولوا إلى حالات نفسية أو رمم متنطعة. يقول أنه ذهب مرة وأمضى معه ليلة طيبة في بركة السبع.

ليست كلماته الطيبة النادرة عن أبي، ولا نعمة البنفسج التي هبطت عليّ في شقته هما ما يربطاني به. أهم شئ هو سخريته الصامتة التي تكشف المتناقضات حولك فترى الدنيا وقد سادها نوع من العرى المثير الآخاذ.

وجودها معى تشهد ما ينكشف ويتبدى فى هذه الشقة - قلب القاهرة - كان يجعل الأمر مثيرا مهما اكثر، ويستحق المتابعة.

هى ليست معى. كانت معى، ولم يعد للقاهرة قلب. نزلنا متأخرين، بعد أن انتهى عرض عبداللطيف العبثى. باركنا عم شوقى بلطف حتى الباب. ساحرا كان الطريق معها إلى الكورنيش والكوبرى. فى طريقنا إلى غرفتها فى أول الزمالك. قالت لى أنها قد تركت نافذتها مضاءة.

(١٢)

الجحيم الجديد بدأ منذ رحلة مرسى مطروح المشئومة : أول دخول هانى قبطان الحقيقى إلى حياتنا. لف حول أمى حباله، ودمر عائلتنا غير المقدسة من الداخل. قامته الطويلة المشدودة بلا جلال ولا مهابة، ألقت بظلها الكريه على كل لحظات حياتى.

كراهية الكون والوجود والذوق واللون والقمصان والحركات والإشارات والمعانى، والكلمات ـ خاصة الكلمات ـ احتفظت بها كلها له. وجوده كان يجعل جراحى تنزف ورأسى ينفجر.

خطواته الحادة، صوت مفتاحه فى باب الشقة كانا كافيين لكى يجعلا منى حيوانا جريحا مستفزا تحت التهديد.

كرهت أمى لأنها أصبحت من أشيائه. أرى وأشم ريحه فى جميع ما تفعل أو تقول. ولا حيلة لى ولا مهرب. هى لبست له ملابس جديدة وخلعتنى وخلعت كل شئ.

وأنا أعانى من حمى طويلة، وكانا لم يتزوجا بعد، أفتح عينى فأراه. واقفا على رأسى طويلا حتى السقف مصنوعا من رخام بارد يقع ظله على صدرى ويكتم أنفاسى. لم يفارقنى هذا الشعور أبدا.

استولى على كل المواقع وأنا محاصر أتراجع دائما إلى شرنقتى وأترك له أمى وأختى والمكان الذى أعيش فيه، انتقلنا من شقتنا القديمة فى مدينة نصر. تم ترحيلنا إلى بيته فى الإسكندرية. تخلصت أمى من كل نباتات الظل التى كانت تعتنى بها، وأشياء أخرى كثيرة كانت تحمل بصمات عيلى داستها أقدام حادة مزقتها سكاكين.

فى البيت المريب الذى لم أجد أبدا فيه مكانا لروحى، كانت الليالى تبدأ متأخرة. ومع تقدم الليل كان هانى قبطان يتحول فعلا إلى رئيس عصابة. مخيف وجبان وقذر، يجمع كل خصائص مسلسلات التليفزيون المتخلفة فى ليلة واحدة. يبعثر حوله أشلاء قذرة، تستيقظ فى وسطها أمى وتعيش لكى تعد له يوما جديدا وليلة جديدة. كان البيت يبقى مفتوحا طوال النهار، يدخل ويخرج خدم وصبيان، ومهربون وصناديق مغلقة، وهانى نائم أو غير موجود ولكنه يدير كل شئ.

تعددت حالات أمى، وأرتدت عشرات الوجوه. لكنها كانت قد تخلصت إلى الأبد من الوجه الوحيد الذى أحبه وأعرفه. ومحاولاتها للتقرب منى كانت تجعلنى أكرهها أكثر.

انشغلت دوما بتدبير مؤامرات فاشلة لفضحه وضبطه متلبسا عاريا مفضوحا، من دون ذلك القناع الذى يدارى به كل حياته.

كل الوعود لم تكن تنفذ إلا برضا وموافقة منه. تأخذ هى أمامى موقف الزوجة التى لا تكسر لزوجها كلمة. الثانوية العامة، مرضى المتكرر، التحاليل وزيارات الأطباء، عشرات الحيل والأكاذيب كانت الخيوط التى أخذت أنسج منها مؤامراتى للحصول على شقة لاظوغلى التى أخذتها أمى من خالى الذى مات فى كندا.

لم يوافق هو أبدا وكان إعلاننا للقطيعة وإخلاء المسئولية وتحميلها هى للمرة الأولى وحدها كل العواقب.

موافقة مع اللعنات خرجت بعدها من جنته وجحيمه، ولم أنظر أبدا خلفى. اعتبرته ميلادا جديدا وحاولت حفره وتسجيله على كل المقاعد والمناضد والجدران.

لم أترك كراهيته تذوب فى حياتى. هى كافية لكى تفسد بحار العالم. أبقيتها فى صناديق مغلقة. لم أسحبها ورائى. المهم أن أعرف كيف أوقف كل شعور بالرثاء على نفسى. ألا أقابل الحياة بشعور امرأة مغتصبة.

ولكن فى القاهرة كان جحيم آخر جديد.

(١٣)

مغامرةوخيمة العواقب كانت زيارتى للقرية التى ولد بها أبى كفر شوق فى المنيا. «رقصة الديك» ومخطوط المسرحية التى لم يكملها أبى، حركت كل هذه الكوارث التى تساقطت على رأسى.

ملكتنى صور ذلك الكهف الذى يفتحه دم ديك بلدى يذبح أمامه، والهياكل العظمية للطامعين الذين دخلوا لكى يحصلوا على الذهب والمجوهرات فماتوا ومات غيرهم مئات: والمغربى البدوى الرحال يدور فى القرى مطلقا بخورا ومغنيا أغانى لا يفهمها أحد. ومحطة كفر شوق القديمة ورجب بائع «الدوم» الذى اشعل الحريق وأطلق الجنون وطاردته القرية..

حاولت أن أدخل برأسى إلى عالم هذه القصة وليتنى ما فعلت.

اتفقت أنا وصديقى حسين كاظم أن نسافر وراء هذا الحلم الملعون. كان سوء اختيار منى للرفيق وللطريق معا. كأننى حدقت فى بئر فارغة بلا قرار.

كانت مواجهتى الحقيقة الأولى لفكرة أن أبحث لى عن وطن. مسقط رأسى فى الخليج. ولكن هنا الوطن. أليس كذلك؟ استحوذت على محاولة فهم هذه البديهية، كما استحوذت على صور مبعثرة من قصة أبى وحياته.

أنكرنى هناك المكان والناس. لم أتعرف على أحد ولم يعرفنى أحد. كنت أخوض فى زحام من الفقر والتخلف يصيبنى مرة بالقرف ومرة بالفزع، يتركنى مشدوها أقرب إلى الأبله، أغلق خلفى تماما طريق الفرار. بعضهم يقول «آه .. ابن الدكتور منير.. الله يسامحه بقه» وبعضهم لا يقف حتى ليدلنى على الطريق. لا أحمل معى سوى نظرات الاستنكار والريبة.

طابور الناس والميكروباصات الممتد من المركز إلى القرية، خليط غريب من الصعايدة ولابسى الجينز والملتحين ولابسى الملابس الباكستانية، وجحافل من التلاميذ الصغار والفتيات المحجبات. الجميع منهمكون وسط الغبار لكى يلحقوا بشئ لا أعرفه.

لم يكن حسين من الناحية المادية أحسن حالا من هؤلاء. بل لقد بدا وكأن كثيرا منهم يخافون أن يظهر عليهم ما يملكون من

نقود. مع ذلك كان حسين يعاملهم بتعال قاهرى بغيض. كأنه سائح خايب رذيل كرر الإشارة إلى صور ومناظر موجعة أليمة، وكأنه عثر على ضالته وما يبتغيه. يستعرض عليهم ليس تفوقه العقلى فقط بل والطبقى أيضا. يريد أن يقول دوما : أنا أحسن منكم.

كان هذا أكثر مما أحتمل. فوق ارتباكى وضياعى الذى أحسست به وأنا أتلمس فى ظلام تام أطلال كلام أبى، ومهابط الوحى والإلهام الذى كان ينزل عليه.

لم أجد رسما واحدا من الرسوم التى اشتعلت فى خيالى المحموم. حتى الشجرة القديمة التى حكى عنها على رصيف المحطة. لم أجد لا شجرة.. ولا رصيفا أطبقت على المحطة من الجانبين ظهور بيوت بنيت على عجل بالطوب الأحمر.

ليس فى القرية كلها مكان ولا إنسان يؤوينا لليلة واحدة. نوافذ وأبواب مغلقة. وعواقب وخيمة لو واصلت الطرق والسؤال. لا وقت ولا رغبة عند أحد فى أن يتكلم أو يتذكر.

يضيع منى الشئ مرتين.. الحياة - وحتى الشعر - قبض الريح. خارج أنا وحسين من القرية ليلا عبر مستنقع مظلم يقود إلى الطريق السريع.

فى غرفة عالية السقف، عارية تقريبا من الأثاث، أمضينا ليلة ثقيلة على النفس.

نام حسين لكن - أنا - لم أنم.

(١٤)

عطشان دوما - لحبها الصافي - لا أريد أن أفارقها أو أتركها تنشغل عني بشئ آخر. أجد معها حلا لوجودى. أشرب ضوء عيونها البنفسجى الذى يبدل كل ما حولى ويطلق روحى. أتعلم منها وأسمع عن شعراء ورسامين وموسيقيين لم أسمع بهم. وإن سمعت فلم أكن أعرف ما يفعلون وهى تحبنى أدخلت هؤلاء إلى حياتى كأننى أعرفهم أو كأننى واحد منهم.

البيت الخشبى القديم المحشور وسط العمارات الجديدة على الكورنيش.. تقول إنه يذكرها بديكور مسرحية بيت الأشباح، أوافق على كلامها فتقول : هل تعرف كل شئ .. يا حصانى الجميل؟

مسافات طويلة بيننا.. واقع ولغة ودين. كاثوليكية وأنا مسلم. أحبت المصحف المرتل. سمعته ساعات طويلة معى. سمعت أم

كلثوم، وسمعت موسيقى «باخ» معها حتى أدمنتها. غالبا ما كانت تكتب كل ليلة خطابا لوالدتها بالبولندية. أسمع منها موسيقى غريبة تحرك الروح.

لم يكن هناك حلم ولا واقع.. لا شئ على الإطلاق مستحيل.

كنت لا أرى ما يمنع من أن يتم زواجنا فورا، نتزوج فى الشهر العقارى وننتقل معا إلى شقة لاظوغلى. النقود التى أحتاجها لن تزيد. هذان النذلان. أبى وأمى يملكان أطنانا منها. ثم إن لكارين طريقة غريبة فى التعامل مع النقود. تصرف، ونقودها لا تنقص.

يمتعها اندفاعى هذا للزواج، تتأمله وتثيره وتبقى القرار معلقا كأنها تملك كل شئ فى يديها.

فى الصيف طلبت فى نهار حار أن نزور المقابر التى تمر بها كثيرا وهى فى السيارة. لم تفلح الزهور والخوص المتناثر فى أن تقاوم فى روحى ذلك الفناء الترابى المخيف الذى أخذنا نخوض فيه. السيدات البدينات اللاتى يحملن ألوانا من الطعام ويتحركن به فوق الموت الأصفر، يدفعن الغثيان إلى مداه، كانت تحتمل الحرارة والتراب والموت الأجرد فى صلابة مثيرة للدهشة. محدقة فى صمت، تكاد تكتم أنفاسها.

حدقت أنا الآخر فى الأشباح التى تراقصت على ضوء الشمعة التى أشعلتها هى ليلا، وأخذت تحكى عن قصص «المسلمانى» الذى كانوا يحكون لها عنه وهى طفلة : «المسلمانى» الذى يقفز من

نوافـذ البـيوت لـيخطف الأطفـال، أو يذبحـهم. سكنت المربعـات والمستطيلات التى نمت من الصمت فى الليل أشباح غريبة بيننا.

عندمـا نامت وسكنت إلى صـدرى كنت أحس أن أمـامى طرقـا وأسفارا تحملنى إلى آفاق غريبة وحدى.

(١٥)

الخدم الذين عرفتهم فى الخليج كانوا أغرابا من سيريلانكا أو الفيليبين، ألوان مختلفة، كأنهم بشر ركبوا من مواد أخرى، أما «حلمى» فقد كان ابن الخادم الذى اخترعته أمى لكى ينظف الشقة مرتين فى الأسبوع، فى عهود ما قبل دادة نجية وقبل جحيم هانى قبطان.

«حلمى» مرجعى وملاذى فى هذا العالم الجديد الذى قذفونى إليه.

أعرف أن سن الثامنة والتاسعة سن الاكتشاف والدهشة، لكننى كنت أكتشف الأشياء مرتين، وأفقدها مرتين، عمليات تحويل عملات غريبة تدور دائما فى ذهنى. حضور وغياب. لا أعرف ماهو المكان الحقيقى. ولا ماهو الشئ الذى لن أراه بعد ذلك أبدا.

علاقتى مع «حلمى» كانت أول شئ حقيقى أصنعه بنفسى وبشروطى. الإثنين.. والخميس عندما يأتى مع أبيه لتنظيف الشقة كانا اليومين اللذين أعيش من أجلهما طوال الأسبوع. أعد البرامج وأرتب المفاجآت، وغالبا ما أتمارض حتى لا أذهب إلى المدرسة وأمضى النهار كله معه.

خليط فريد من الحب والامتلاك والخوف والرغبة فى المجاهل والمعارف الواسعة والآفاق الجديدة التى تفتحها علاقتى به.

هو فى نفس سنى أو أصغر قليلا. وجوده فى الدنيا ومجيئه مع أبيه كان الشئ الوحيد الذى يجعلنى أرى الأشياء تترابط وتصبح حقيقية. كنت أجعله يفعل أى شئ ويتحمل أى شئ أبقيه دائما مندهشا من أشيائى وألاعيبى وقصصى الحقيقية والمخترعة التى أنسجها له على هواى.

شئ وحيد كان يملكه ولا أملكه أنا. كان موجودا طبيعيا ضروريا، له مبرر، بينما أنا زجاجى. أنا بكل ما أملكه فى غرفتى المزدحمة باللعب والأثاث المختبئ فى عمق شقة مدينة نصر المزدحمة بنباتات الظل، كنت زائدا على الحاجة، لست ضروريا ولا مبرر لى، الشئ الوحيد الذى يشغل ذهنى غير «حلمى» كان التصوير بالكاميرات الغالية الجديدة التى أطلبها من أمى بلا حدود.

إدمان مبكر، سلوك استحوذ على روحى ومتعة سرية خاصة : أن ألتقط صورا ثابتة من وراء عدسة، أمسك باللحظة الوهمية الخاطفة المدهشة. المسألة أننى لم أكن أحب أن يرى أحد صورى، لا أمى ولا لمياء، ولا أحد من الزوار القلائل، لماذا - وأنا لا أحبهم - أجعلهم يقتحمون على لحظاتى الخاصة التى رأيتها وحدى؟

«حلمى» - فقط - كنت أتركه يقلب فى كل الصور ويفعل بها ما يشاء ويسألنى عنها. أغلب الصور خالية من الوجوه أو الأشخاص، كلها لأوراق النباتات أو حديد الشباك، أو أرجل المقاعد، أو أدوات المائدة. دهشته بالصور، وتأمله لها سعادة هائلة لى أحيانا يخترع لها أسماء ويرى فيها كائنات أو يرتبها ليصنع منها حكاية.

لم يكن يذهب إلى المدرسة لأنه مصاب بالصرع، تصيبه نوبات متباعدة ويقتضى مصاريف كثيرة يتحملها أبوه من أجل أمل غامض فى الشفاء. للرجل من أجل ذلك عدد هائل من الأعمال وعالم مشغول واسع من العلاقات والبيوت التى يذهب إليها، ومعه دائما «حلمى» هو عند بعض الناس أعجوبة أو طفل معجزة. له وجه هادئ جميل، عينان تشعان ذكاء صامتا وحزنا بعيدا، أهله رغم الفقر يعتنون به جدا، ويبقونه دائما نظيفا، النوبات ليست شيئا خطيرا. يضغط بقوة على الحائط خلفه، ويفرك يديه فى بعضهما البعض بشدة، ويتصاعد ألم يغير ملامح الوجه الجميل ثم يفقد وعيه ويسقط على الأرض.

عودته من النوبة كانت شيئا جميلا.. كأنه الصباح يعود من جديد.

حياة حلمي حية واسعة مليئة. كأنه يعيش في قلب خلية نحل أو في مدينة بناها النمل تحت الأرض. بادلنا أنا وهو حياته بحياتي، أحب حياته جدا، ويومه المزدحم، أحب - أيضا - أن يبقى معي طول الوقت يحكي ويتفرج على الصور. عندما أكون أنا مريضا ويبقى هو معي في الغرفة كنت أشعر بدفء وضوء غريبين يملآن المكان، وعندما يذهب كانت الغرفة تعود باردة كأنها قبر من رخام.

لم أعرف أبدا من دبر المؤامرة الكبرى ضدي، ولا من بدأها، الذي أعرفه أنني قاومت وأضربت واعتصمت وامتنعت عن الطعام، لكي لا تفصل أمي بيننا وتمنع حلمي ووالده من المجئ.

ذبحت أمي، في قسوة باردة وبلا مبرر، أيامي. لم أمسك بعدها كاميرا، ووضعت الصور في صندوق أسحبه. دائما ورائي. حرمتني أمي من العالم الواحد الوحيد الذي أحببته.

(١٦)

نظهر متلازمين أنا وحسين كاظم فى أغلب الندوات الأدبية، أشعر أن وجودنا معا يثير أسئلة بلا إجابات، فلا أحد يعرفنا، ولا أحد يعرف إلى من ننتمى ولا مع أى الشيوخ نعمل. نشرنا قصائد قليلة جدا ولسنا بأى مقياس كائنات يلتفت لها. نتخذ لأنفسنا موقعا استراتيجيا نراقب منه المقدمة والمؤخرة ونختلط بالجمهور العادى الذى جاء بالمصادفة أو لتمضية الوقت. مع هؤلاء يكون الجو أفضل من الاختلاط بالمجموعة المألوفة دائمة الحضور التى تتحرك حول المنصة والمقاعد الأمامية لقضاء مصالح صغيرة أو تصفية حسابات وهمية.

نادرا ما يقال شئ حقيقى، عرض للمعارف المكررة، واستعراض ماهر أو سخيف للنفس نادرا ما يقنعنى أحدهم أو

يفاجئنى بتفكير خاص أو اهتمام صادق أو اقتناع بما يقوله أو يتحدث عنه. نتبادل أحاديث جانبية متقطعة أو نقول نكتا قديمة لنسأل أنفسنا بعد فترة : «هى إيه الحكاية!».

الليالى تدبر نفسها.. فى كل مساء يولد شيطان جديد يتحكم فى الليل ويقوده، شياطين صغيرة تنتجها حالة الضياع الذى ألقاه فى كل طرقات حياتى. تمر أيام طويلة وليال دون أن أشعر بوميض الوجود الحقيقى أو تعترى جسدى رجفة الحياة.

بعد أن تنتهى الندوة يخرج الجمهور العادى متثاقلا يحمل خيبة الأمل، بينما تنشط جماعات الصفوف الأولى لمواصلة المبارزات الخشبية فى أى مكان.

يدفعنى لكى أظل أتردد على هذه الأماكن جوع حقيقى لأن اعثر على شئ. قصيدة ربما، أو مفتاح الحياة.. وغالبا ما تنتهى بى الليالى وحيدا غريبا على طاولة ممدودة مزدحمة بكلمات كاذبة، وأحلام داستها أقدام. اندفعت فى البداية أحضر كل الندوات التى أسمع عنها هنا وهناك كأننى أبحث عن أبى أو بعض منه. عرفنى واحد أو اثنان من كبار السن ليسألا عنه بسؤال عابر وانتهى الأمر. قابلت بعض تلاميذه الذين لا يذكرون له شيئا. الرأى السائد أن الذين سافروا إلى الخليج خونة لا يحق لهم أن يعودوا إلى الساحة. فرصة للتصنيف والحكم والإدانة وممارسة كراهية مكتومة ورغبة دائمة فى ممارسة الجرح والتشريح.

الأستاذ الكبير اكتفى بنا نحن الأثنين، حسين وأنا، بعد أن فشل فى أن يحصل فى ليلته على مستمعين أكثر أهمية منا. ذهبنا معه ونحن نحسب حساب الكوارث التى يجلبها إسرافه فى الشراب. والصداع الأبدى الذى يصيبنا إذا بدأ الحديث عن نضاله السياسى وعن الثمن الذى دفعه من أجل «القضية».

على مائدة منعزلة فى محل تسكنه رائحة قديمة استعاد الرجل شبابه وأخذ يصب فى جوفه متسارعا شرابه القوى. اختار مدخلا جديدا وأخذ يقول إنه لا يفهم سر انفصال المثقفين، وعزلتهم عما يتحقق.. عن الإنجاز الذى يتم . أخذ يكرر أن كل شئ نسبى.. الديمقراطية نسبية والعدل نسبى.. وأن المشاركة فى الفعل هى التى تعطى حق النقد أو الاعتراض.

كنا قد سمعنا أنه مرشح لرئاسة تحرير مجلة جديدة رجع بكرسيه إلى الخلف وقال : أنت مثلا موهوب.. لماذا تكتفى بالفرجة.. لماذا لاتضع نفسك فى قلب عمل ثقافى؟ لماذا لا تشارك؟ أم أنك تريد الهرب مثل أبيك!

يبدو أن الشراب القوى الرخيص قد ضخم كلمة الهرب فى رأسى. رأيتها معنى بشعا كريها. لم أرغب فى أن أراها تلتصق بأبى. حاول أبى قدر ما استطاع. هو الهارب ذلك الفأر اللامع، هارب إلى دهاليز السلطة ومكاتب المسئولين، هارب إلى محفظته التافهة وملابسه السابقة التجهيز.

قلت له فى كلام أثقله الغضب والشراب إنه هو الهارب فى كل ما يفعل أو يكتب أو يقول. وإنه لا يرى شيئا ولا يدافع عن شيء، وإن كان يتصور أن ما يفعله أو يكتبه هو مشاركة فى خدمة ثقافية تقدم للناس فهو واهم؛ لأن ما يفعله حقيقة هو استرزاق بذئ من مال ناس فى حاجة إلى رغيف ومدرسة نظيفة. أن الديمقراطية النسبية التى يتحدث عنها ليست سوى ستار يختفى وراءه النهابون أمثاله.

فى لحظة اكتشفت أن الأستاذ الكبير جبان، وأن غضبى الذى انفجر أرعبه، وأنه مستعد للموافقة معى إلى حد البكاء. لم يبق على المائدة سوى الفتات ككل ليلة، واستطرد الأستاذ فى تراجعه يستعمل كل المصطلحات القتالية من الساحة حتى المواجهة والصمود.

كوميديا هذه الألفاظ كانت تثير ضحكى أنا وحسين. أراهم جميعا جيوشا من النمل اجتمعوا حول جلد ثعبان فارغ، الثعبان فى الحقيقة خلع جلده وتركه، وراح هو إلى مكان آخر. هم مشغولون بالجلد الفارغ الملون. المصيبة الماثلة فوق رأسى دوما أن كلا منهم يعيش حياته وحده. متصورا أنه كون وحده أو جزيرة. عندما يقتنص «لقمة صغيرة» يرفع رايات النصر ويتوقع أن يشارك كل الناس فى الاحتفال.

كان على حسين أن يسرع لكى يندس فى الميكروباص الذاهب إلى امبابة، حاسبا حساب رائحة الخمر فى فمه. حاسبا حساب

الدخول إلى عرين أبيه الضيق. بعد أن ضمن فى جيبه ثمن السجائر وساعات الصباح.

بقيت وحدى فى الشوارع مع جلد الثعبان الفارغ مررت على الشحاذين الثلاثة المتكومين مع نفاياتهم فى شوارع باب اللوق الجانبية. أطبق عليهم الليل. أما بقية الناس فقد دخلوا إلى البيوت، وأغلقوا أبواب الشقق والنوافذ. يبقى الحال ـ دوما ـ على ماهو عليه.

(١٧)

اليوم الذى عقدنا فيه عقد الزواج فى الشهر العقارى حار جدا. كارين ترتدى «تاييرا» إنجليزيا فاتحا وبسيطا. رغم الزحام وضيق الغرفة وسخافة الإجراءات، فقد ساعدنا المحامى الماهر الذى دلنا عليه شوقى عامر.

كانت كارين قد سافرت إلى أمها لتأخذ موافقتها وعادت. احتفلت بينى وبين نفسى كأننى ملكت نجوم السماء، أنجزت هى فى سرعة وبساطة، وبتكاليف قليلة، ترتيب شقة لاظوغلى وإعدادها للحياة. لم تمض أيام حتى صارت مكانا مختلفا نظيفا خارج فوضى العمارة والمكان.

لم تكن سهرة الليلة ظريفة، فقد اجتمع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء حول زجاجات خمرة كثيرة وطعام غريب جلبوه معهم.

أغلب أحاديثهم تدور باللغة العربية، وأكثر الإشارات والنكت جنسية ولا تترجم. بعد ساعة اشتكت لي كارين من أن الدخان كثير، وأن أصواتهم العالية تشبه السعال، وآثرت أن تأخذ صداعها الخفيف إلى غرفتها وتحاول أن تنام.

غيرت هي تفاصيل العمل في رسالتها «الفنان يعمل» واكتفت بالفنانين والكتاب المصريين حتى تبقى معي في مصر كل الوقت المتاح. ترتيب الحياة وتخطيطها الذي ناقشناه مئات المرات، كان يقتضي أن أنهي الدراسة في الجامعة، وانتظم في العمل والكتابة يوميا في استمرارية مقدسة، تلم الوقت المشتت والأيام الضائعة، محاولة لزرع نظام في أرض وروح تلوثت بداء الفوضى والضياع.

كارين قادرة على خلق إيقاعها الخاص ونظام يومها المشحون دون تزمت ولا جهامة، ولكن في صرامة متحضرة.

حبها لي نهر تحت الصخر لا هو مبذول مبتذل ولا مصنوع، حاضر يحيط بي من أول ساعات الإفطار في الصباح حتى هبوط الليل.

مرت شهور وأنا أصارع بقعا سوداء تولد بين اللحظات، فتجعل الوقت حائلا لا طعم له، يضيع في التحديق والاجترار.

لم تكن تتحمس لفعل الحب لتمضية الوقت. لا يكون مصدرا للسعادة إلا إذا تم في لقاء جسدي ومزاجي متكامل، تتصاعد في اتزان وتصل قمتها في انتشاء كامل مريح. أما أنا فقد كان الجنس

معها يبقينى غالبا أسير مشاعر حائرة مرتبكة. نهر حبها يتجدد بفعل الحب.. أرى ذلك واضحا فى وجهها فى الصباح أما أنا فقد كانت شرنقتى القديمة تطبق دوما على أراض جديدة فى روحى وحياتى. لم أعرف كيف أعيشه حرا منعشا.

الأصدقاء والأشياء الطارئة كانت تخترق اليوم وتتركنى أدور حول خيالات متعلقة بالكتابة أو الشعر دون إنجاز يذكر أو تقدم. بينما أراها إلى جوارى ينتظم عملها يوما بعد يوم، وتتوالد الأفكار فى صحة ونماء تراقبنى دون حكم أو إدانة، يولد عندها بالنسبة لى نوع من الإشفاق والاستغراب الحقيقى. أبحر دون أن أدرى فى بحار وحدتى وضياعى المطلق.

لم أكن رأيت أمى منذ فترة طويلة، من أيام أزمة وفاة هانى قبطان، وما صاحبها من فضيحة، حاولت أمى مع الجميع كتمانها ومنع السبب الحقيقى للوفاة من أن يتسرب إلى الصحف التى تتشمم أخبار الهيروين ومتعاطيه.

بعد الزواج طلبت أن ترانى وتتعرف على كارين أكثر من مرة. لكننى كنت أدفع المواجهة بعيدا عنى كما أفعل فى أشياء كثيرة. أسمع أن حالتها تزداد سوءا مع الحبوب المهدئة والشراب.

قمنا بالزيارة بعد أن ألحت كارين وقالت إنها ضرورية. يوم تعس مر المذاق. البيت الذى تقيم فيه تحول بسرعة إلى فيللا مهجورة وسط فيللات أخرى مزدهرة منتعشة فى منطقة رشدى،

هذا هو المكان الذى تمنيت دائما أن أراه كوم تراب أو رمادا فى الصباح المتأخر كانت السيدة العجوز تبذل مجهودا كبيرا لكى تبدو متماسكة مفيقة. دخلنا إليها متوجسين ارتدت بعض ثيابها الكلاسيكية، وشدت نفسها على مقعد وحيد يحيطه فراغ بعد أن صففت شعرها ووضعت ماكياجا ثقيلا. جمعت كفيها فى توتر. كانت يداها عجوزتين.

بذلت مجهودا كبيرا لكى أتم عملية التعرف فى سلاسة، أخذت هى تتكلم فى إنجليزية متكلفة وتحكى لكارين عنى.. وعن حياتى.

يستطيع الإنسان أن يبرر لنفسه كل شئ.

هو قادر على أن يرى فقط ما يحب أن يراه.

أعطت كارين فى إصرار قطعتين من مجوهراتها القديمة. راقبتها كما أراقب ممثلا متوسطا يؤدى دورا لا يصلح له.

فى الليل ذهبت أنا وكارين إلى مطعم «سانت باربرا».. الضوء أصفر شاحب وعلى صدرى كآبة لا حل لها.

طلبت كارين النبيذ المصرى الذى تحبه. لم أعرف له طعما. أبعدنى النبيذ عنها وجعلنى أسقط وراء الحقيقة فى وحدة مرة.

(١٨)

تركت كارين وحدها فى الشقة لأكثر من أسبوع، أجمع فى «بركة السبع» شتات نفسى بعد الوفاة المفاجئة للدكتور منير فكار. انتزعتنى كلمة «تعيش أنت» من فوضى القاهرة وارتباكها وسحبتنى لكى تلقى بى فى مستنقع «بركة السبع». فى الفراغ الذى خلفه رحيل الرجل الكبير. لم أدرك لحظاته الأخيرة. كشفت الملاءة البيضاء، حدقت للحظة فى الوجه الصارم البعيد. انطبعت خطوطه الخارجية الحادةعلى القماش بعد أن أعدت الغطاء. لن يقول لى أبداً شيئا بعد الآن.

للحزن طعم جديد طازج كأنه مذاق الدم. ولم يكن حولى على الإطلاق من يشاركنى.

ضوضاء العزاء وكل الترتيبات تولتها زوجته سكينة وأهلها الذين ملأوا المكان بملابسهم البيضاء النظيفة. كتيبة تستولى على قلعة سقطت. لم يكن لى فى كل ما يفعلون رأى ولا شأن.

لمياء حضرت مع بعض زبانية زوجها وانصرفت بعد ساعات. من أمى لم أسمع أى خبر. فى ليالى العزاء كان الحضور من أهل الناحية قليلا. ولم يحضر من أهله الصعايدة أو القاهريين إلا أربعة أو خمسة وظل السرادق منصوبا شبه خال. يدوى فيه صوت قرآن لا يستمع إليه أحد.

ليالى شتاء ريفى بارد ينفذ إلى العظم. البيت الداوى سكن تماما. حط فى غرفته وفى الأماكن التى كان يجلس فيها فراغ الموت الجديد. أحسنت زوجته سكينة استقبالى فى بيتها ورعايتى دون إزعاج. المرحوم رتب كل شىء منذ فترة قبل موته. كل شىء هنا باسمها. لى أنا ولمياء ودائع نقدية فى بنوك. أوراقه الخاصة لى أن أنظر فيها وأفعل بها ما أريد. هكذا قالت وهى تعطينى مفتاح الغرفة الفارغة التى أعيد ترتيبها وتنظيفها بعد الدفن.

جوار السرير حقيبة جلدية قديمة، مغلقة ومفتاحها صغير، فيها أوراق وكراريس قديمة كتب عليها «وزارة المعارف العمومية». ما أحلى خطك يا أبى وما أجمل رائحة الأوراق القديمة.

الليالى والأيام التى أمضيتها هنا صنعت من مادة مختلفة. تحديقى عن قرب فى حقيقة موته وغيابه، غير طبيعة الوقت

والزمن. شيء ما جذبني وغاص بي إلى قاع سحيق صامت. الضجة كلها انتهت إلى سكون.

تركتني سكينة أقضي أيامي في غرفته. وحيدا صامتا لا أكاد أفعل شيئا سوى التحديق في السقف أو من نافذته المفضلة التي تطل على الحقول وأشجار بعيدة.

عرفت من سكينة أنه في الأيام الأخيرة لم يكن يغادر هذه النافذة إلا لكي يستحم مرات متعددة في النهار والليل. يغسل جسده مرات ومرات بأنواع مختلفة من الصابون المعطر.

ذهبت إلى المقبرة الجماعية في التل الترابي الكبير الكائن جنب الحقول. أمضيت وقتا طويلا معه هناك. عرفت وحدي أن دموعي قد تحجرت وأنني لم أعد قادرا على البكاء. المقابر هنا أكثر رحمة من مقابر المدينة. لكن رائحة الغياب والفناء واحدة.

النقود، والنجاح وكل أنواع الطموح تسكن هنا مع هؤلاء الرفاق الذين أدوس على ترابهم الآن وأشم رائحتهم تختلط مع الهواء الجديد.

نافذته جميلة حتى في الليل. تطل على كتلة من الظلام تتراقص فيها قمم الأشجار كأنها رؤوس بشر يحاولون العودة إلى الحياة.

ودعت سكينة. عرفت أنني لن أراها أبدا بعد الآن. حملت حقيبته الجلدية القديمة ورجعت إلى القاهرة يتيما.

(١٩)

حضوره صار كاملا فى حياتى بعد موته. كأننا عشنا العمر معا، لم نفترق يوما. لم أكن فى حاجة لأن أقلب فى أوراقه كثيرا. كنت أعرف أغلبها سوى بضع خطابات مفاجئة كان قد كتبها لى وللمياء. خطابات حزينة وحيدة فيها رغبة حارقة فى أن نبدأ معا حياة جديدة. نجتمع كلنا حول أمى نحبها ونغفر لها. «نبدأ من جديد» كلمة مكتوبة ومشطوبة عشرات المرات فى خطابات لم ترسل أبدا. لم يرد ذكر سنوات الخليج فى أوراقه كأنه محاها أو اسقطها عمدا بدايات ومشروعات يوميات يتحدث فى أغلبها عن الندم على هجر الكتابة، والتصميم على العودة إليها فى انتظام.

صدى كلماته صار يطاردنى فى إيقاع ثابت كأنه دقات القلب. لم أدع أحدا يطلع على الأوراق، ولا حتى كارين، أخفيتها تحت مكتبى انظر إليها من بعيد وكأننى أقلبها وأقرأ فيها.

حـوارى الدائم يتـسـرب إلـى داخلى، أسـئلة عـامـة لا أجـد من أحـملهـا إليـه. أسـئلة عن وجـودى، عن نـقـودى الموجـودة، والتى ضاعت، عن جدوى الطموح، والهمة ومعنى النجاح.

صـارت هذه الحوارات والأسئلة تملأ ساعات تحديقى واجترارى للصور والعبارات التى لا تكتمل.

وجـدت فى الحـقيـبـة أيـضـا بعض الصـور القديمة له فى شـبـابه هالنى الشبه بينى وبينه. خاصة فى الجبهة والشفتين. صرت أرى صورته دون ضوء ولا مرآة.

بقـيت صـامـتـا ثقـيلا طوال المسـاء والليل. حـاولت كـارين أن تخـرجلى مما أنـا فـيـه. لكننى أعـود إلى حـالى القـديم استـأنفت طقوسها الليلية ودخلت إلى الفراش.

حـملت همى وخـرجت إلى الشـوارع مـتـأخـرا على غـيـر العـادة عندمـا تكون معـى. تركت المكان الـوحيـد الـذى سكنت إليـه وكـاد يحتوينى، لم أكن قادرا على أن أنطق كلمة إنجليزيـة واحدة أخرى. بدا لى المكان غريبا.

فى الشارع كان سواد فارغ ممدد ينتظرنى. مـجردا من الرغبة غـيـر قـادر على المقـاومـة، مـررت فى الشـوارع الجـانـبـيـة أتفـقـد الشـحـاذين الثـلاثة وجـدتهـم فى أمـاكنهم المعـتـادة، حـولهم نفس الأقمشة الخلقة وزجاجات البلاستيك الفارغة.

طرق الحياة بدت متساوية كلها تؤدى إلى لا شيء.

فى سوق الخضار المجاورة يرتبون فى الفجر العربات عليها أكوام الفواكه والخضراوات الطازجة الجميلة. صافية مكتملة تحت الأضواء. بعد قليل يمزقها البيع والشراء وتفترسها ضروس الماكينة التى لا ترحم. عبرت أكوام الزبالة المحيطة بالسوق واندفعت هاربا حتى لا أشهد بداية المعمعة.

وصلت إلى ضوء نافذة شوقى عامر لم أصدق أننى رأيت النور اندفعت اقفز درج السلم.

تأخر كثيرا فى فتح الباب جاء يجر أقدامه فى الشبشب. الشقة خالية إلا منه، أمسك يدى وراح يزحف صوب غرفته البعيدة قال: تامر، أخيرا جئت، أبق معى أنا متعب جدا هذا الصباح.

(٢٠)

المحبة الصافية التى أحملها لشوقى عامر أندر ما فى حياتى. عاطفة تجعلنى أنتمى إليه دون قرابة أو حسابات أو مخاوف وبلا شروط. لم يكن قدوة أو مثالاً. فقط جناحان مفتوحان فى نهاية العالم.

كأننى نشأت هنا معه. كل ما سببته لى نشأتى فى الخليج وطفولتى المرتبكة فى أسرة مدمرة، أجد عنده هنا قدرة على النظر إليها من مسافة ملائمة. أرى الامتيازات التى أعطيت لى دون عناء. وأرى ما حرمت منه دون سبب. أحس الارتباك القومى والفوضى فى الكلام والأفعال حولى. الكل يتدافع ويكذب ولا يمكن توقع حركتهم التالية. معه وجدت حقائق بسيطة وبدهيات تستحق أن تعاش. أشعر معه بندية واستقلال، لم يسمح لى أبداً أن أتكئ

عليه أو أذوب فيه. كان يجعلني أشعر بأنني مستقل، وبأنني واقف على قدمى. كانت هذه أهم عطاياه.

عرفت معه أن الإشفاق على النفس والرثاء لها أسخف النقائص. وأن القدرة على رؤية الآخرين والاهتمام بهم مصدر قوة للنفس، وتجديد حقيقى للدم الفاسد. ضاعت أيامه كلها بين الاعتقال الطويل الذى لامبرر له، وعمل سياسى انتهى إلى لا شئ. وأصدقاء تسربوا كالماء. ومع ذلك فقد ظلت قامته منتصبة، وما يؤمن به فى داخله أخضراً متجددا، ترى ذلك فى وجهه، وفى سخريته التى لا مرارة فيها من تناقضات اليوم وارتباك الواقع.

لم يكن يشكو أبدا. اليوم طرحته أرضاً نوبة برد شديد، جلست إلى جوار فراشه بعد أن أعددت له شراباً ساخناً وأعطيته قرص أسبرين. لم يكن الصمت معه أبداً مزعجا. بقينا صامتين نراقب ضوء النهار يقتحم الحجرة مع أصوات المدينة التى تستيقظ. عندما عرف أن أبى قد مات ضمنى إلى صدره فى قوة ونادراً ما يفعل، ولم يقل شيئاً. أعطانى وأنا أغادره يومها كراسة قديمة جميلة.

أراه جالساً فى شقته ـ قلعته الأخيرة ـ يشرب قهوته فى بطء كأنه واحد من الآثار الطيبة التى تجلب الخير والتى تركها القدماء على أرض هذا البلد المتعب. يدور حوله الحديث، وتحدث التغيرات والوقائع وهو ثابت واثق من شئ لا أعرفه، لا تصدمه التغيرات السياسية ولا يندفع إلى تحليلات أو نظريات عرجاء. لكن يضع

يده فى أغلب الأمور على نقطة ضوء منطقية لم يكن يراها الجميع. هل هى الحتمية التاريخية التى قام عليها فكره وحياته؟ أم هو العمل السياسى القديم الطويل الذى قام به وسط بسطاء الناس هو الذى جعله يتعامل مع الجوهرى ويسقط الحشو والزوائد. وسط كل نماذج اليساريين الكذبة والمسترزقين، يبقى شوقى عامر اليسار نظيفا حقيقيا. يبقيه أملا حتميا فى ضرورة التغيير، عندما تطبق عليه الخناق جماعات المتسيسين ومحترفى الكلام كان يقطع الحديث ويقوم واقفا يمد يديه أمامه كأنه يستنجد بالناس أو برب العالمين.

للمثقف والفنان عنده دور واحد هو الذى يبرر وجوده. الاعتراض وعدم قبول ما هو قائم، والبحث الدائم عن إمكانية تغييره. الذين يدورون حوله وحولنا من فنانين وسياسيين كانوا حلقة وطابورا طويلا من خدم السلطة والباحثين عن مكاسب أو حلول شخصية لحياتهم. لم يكن يهتم كثيرا بالصبور الفردية أو التطورات الشخصية فقد كان يراها حالة عامة وإصابة وبائية أصابت الكل فحولتهم إلى جلد ثعبان فارغ لامع وبراق ولكن بلا وظيفة ولا فاعلية أو تأثير.

رحت أقلب فى اسكتشات وتخطيطات قديمة له بالرصاص والفحم، لفلاحين عاش بينهم فى طفولته، ووجوه من المعارف والأصدقاء حولنا، وشخصيات عامة تصنع وجها غريبا للتحول

الذى يجرى ويدور. فى الرسوم عناية فائقة بالتفاصيل وبالتنفيذ، وغنى تعبيرى مذهل، تلفها موسيقى وإيقاع بعيد واحد،. نداء لحلم قديم ببلد رائع. وواقع متناسق لم يعد موجودا، لكنه مهم وضرورى، ويجب استحضاره.

النهار يتقدم وأنا أسمع تنفسه المتعب العالى. حسبته راح فى النوم. لما تحركت قال لا تذهب. أحضرت له شراباً ساخناً جديداً. تحامل على نفسه وجلس فى الفراش وطلب أوراقه والإناء الملئ بالأقلام وقال: قد تجعلنى الحمى قادراً على تبين خط يجمع كل هذه الأجزاء المبعثرة. قد أستطيع أن أرى لها معنى أو سياقا.

عندما انخرط فى العمل عادت إلى وجهه بعض الحيوية، تحت أشعة الشمس الواهنة التى تسللت إلى سريره العالى الوحيد.

(٢١)

وجـه أمى الأسطورى الذى أحـمله مـعى، انطبع فى عـينى وروحى وأنا أراها عندما كنت طفلا صغيرا فى الخليج. واقفة هناك تبكى جنب المستنقع - قمر شاحب ينعكس جنب وجهها فى الماء الساكن. هواء ثقيل ورائحة سمك ونفط وسفن بعيدة لا تتحرك.

أقدم ذكرياتى على الإطلاق. مركبة من مادة كأنها الأحلام ومن حـوارات مـتـعـددة مع أمى وقت أن كان بيننا حديث. أراه يوماً ماثلا بعيداً أحاول جمع تفاصيله، كأنه قافلة تاهت وتشتت فى صحراء. العائلات المصرية الثلاث التى كنا نعرفها وبعض المعارف وزملاء العمل خرجوا فى يوم عطلة إلى رحلة خلوية فى صحراء تطل على بحر ساكن مخنوق. الرائحة أقوى ما أذكره. سمك، ونفط ، وارئحة عرق كأنه رائحة نقود جديدة.

قالت لى أمى: هى تذكر جيدا تلك الرائحة. معهم تلال من الأطعمة والمشروبات وحشد من أولاد لا أعرفهم فى سن متقاربة.

تلك كانت أيام الحريق الذى ظل مشتعلاً بين أمى وأبى. هى محبوسة قلقة عصبية مصممة على الرجوع إلى مصر. هو الآخر بعيد عنها مصمم على البقاء. متمسك بمشروع غامض لا يشرك فيه أحدا. أنا ولمياء تائهان نتعثر وسط غابة سيقانهم. نساء بدينات افترشن الرمل كأنهن غرف مربعة مغلقة. ارتدين ملابس غريبة، وقطعا من ذهب وأحجار حمراء. يتكلمن بصوت عال ولهن ضحكات بذيئة لا أطيق أن أسمعها حتى الآن. أبى وسط الرجال فى حلقة مستديرة، عندما ألمحه لا أعرفه، يتكلم ويضحك بطريقة غريبة. أنا وسط حشد الأولاد والبنات أختنق بغربتى التى لم تفارقنى أبدا.

الوقت أبدا لا يتحرك. عشرات الشموس فى كبد السماء. لا يقطع صفرة الكون حولى سوى ذباب يلسع ودموع تنهمر لتخنقنى ثم تجف. عندما يلتفت إلى أحدهم أو إحداهن يصر على أن يحشونى بالطعام أو أن يداعبنى فى غلظة لا أفهم لها مبرراً.

نمت تحت ظل خيمة نصبوها واستيقظت فى نفس الكابوس بحثت عن أمى بينهن. لكننى وجدتها منفردة وحيدة. جلسنا صامتين. هدأ رعبى قليلاً فى ظل صمتها. عندما عدت وفقدتها

مرة أخرى، وضاعت وسط الغرف المربعة المغلقة. انتابنى رعب وكأننى أصارع وحشا له ألف ذراع. كل ما أعرف ومن أعرف بعيد مستحيل لا يمكننى الوصول إليه.

عندما بدأت الشموس المائة تغرب ويهبط الليل مع نسيم لزج. دبت فى الجميع حركة نشطة يجمعون متاعهم وأولادهم ويتصايحون فى سعادة كاذبة. لمحت أمى بعيداً تقف وحيدة وقد دخلت إلى الماء الذى امتد حولها كأنه مستنقع لا نهائى.

جريت ناحيتها. وجهها مسطح بارد من الضوء الشاحب. وعيناها تائهتان ضائعتان لا محالة، ألقيت نفسى عليها وبللنا ماء. ما زلت أشم على جسدى رائحته.

حكت لى أمى ـ وما زلت أذكر ـ غضب أبى علينا، وصوته الصارخ بعد أن رجعنا إلى البيت. نمت ليلتها فى حضنها على الأرض، كان ملمس الموكيت المفروش خشنا ولونه أخضر. كلما تحركت يداى لامست بلولة أحسبها دموعها أو دموعى.

ذكرى مرة أليمة كأنها بئر مفتوحة.

(٢٢)

تسعة أشهر كأنها فترة الحمل، أنجبت بعدها هواء. اختفت كارين. رحلت وخلفت لى ميراثا ضخما من القصائد المجهضة والأمانى الهشة التى ارتطمت بالجدران. حدث كل شئ فى دورة صغيرة من دورات الزمن التى أحاول أن أفهم كيف يتسرب كرمال من كف عجوز. تحدث الأحداث صغيرة متتالية، عميقة أو على السطح، ثم فجأة يتغير وجه الدنيا، فإذا بى وحدى معها عجوز شمطاء لا مهرب منها ولا فكاك.

هل بدأت الأمور تتداعى فى الفراش، أم على مائدة الإفطار، أم بدأت المأساة وأنا عاطل أحدق فى فراغى الداخلى حيث لا تواصل بل غربة وانحسار. اندفعت كارين تعمل. تملأ اليوم باللقاءات والقراءة وتدوين الملاحظات، ثم تجلس لكى تكتب حتى وقت

متأخر في الليل، وأنا أدور في دوائرى الجهنمية نفسها: المقهى والشوارع، والأصدقاء. أقف على أعتاب العمل ولا أقدم! أخلف المواعيد والأنظمة التى نضعها. أجد لنفسى دوما عذرا داخليا أو خارجيا لزجا. أكسو وجهى عندما أضبط متلبسا، بابتسامة بريئة أو غضب طفولى نفور.

مرات تحدثت عن قيمة الوقت. وليلاً تحدثت عن مسافة تولد، ومكان لا يمكن منه الرجوع. أمسكت وجهى بين يديها، وحدقت فى برجاء وابتهال. هل كانت تريد أن توقظ شيئا مستحيلا. ما أثقل اللحظات الماضية والكلمات عندما نعرف أنها ستظلّ معلقة فوق رؤوسنا إلى الأبد! كيف لم أسمع ساعتها ما تقول؟

ليته كان عراكا أو شجاراً. كان خمودا بارداً قاسياً للشئ الحقيقى الذى ولد بيننا بلا ميعاد، وتحول أيضاً إلى هباء دون ميعاد، عيناها تعبرانى كشئ، لا ضوء فيهما يبرق لى. لا تنتظر، مشغولة. عيناها على ولا ترانى. صارت مثل أى شئ آخر. لا توقظنى عيون البنفسج. أسحب ورائى اللحظات التى كانت. صرنا نهم بالشئ ولا نفعله.

هناك شروخ أو كسور لا تجبر ولا تلتئم أبدا. تظل دائما تجرح الأصابع والروح. حاولت أن أتدارك الأمر. أن أتراجع. أن أعد بأن أكون مفيدا، كل هذا كان يزيد الأمر سوءاً. تساقط الضوء الرومانتيكى الذى كان يكسو المكان والزمان معها. كما كان سيف الحب باترا، كذلك نزلت مقصلة الغربة قاطعة لا ترحم. اكتفت

هى بمكان صغير فى حجرة النوم تعمل فيه فى صمت وبلا توقف، تأكل قليلاً وهى واقفة فى المطبخ. واكتفيت أنا بسماع شرائط المصحف المرتل أو الموسيقى والتدخين. تركبنى غربة وضيق وأنا أسمع حديثاً طويلا بالإنجليزية على شريط أو فى تليفون. أجد أى سبب يدفعنى للخروج، عندما أعود أجدها مشغولة بعيدة لا تنتظرنى.

خرجت من بين شقوق الساعات عشرات التفاصيل البشعة الصغيرة التى لم تكن موجودة من قبل: فى الخروج والدخول والطعام والشراب فى طريقة النوم وارتداء الثياب، تفاصيل من الرأس حتى أطراف الأصابع. أحسبها غالباً على حق، وعلى أنا أن أعتذر فى ضيق وبلا اقتناع.

تحصنت وراء التصرف الصحيح، لم ترتكب حيالى خطأ ما، وبذلك تحملت وحدى الذنب والتقصير. لم يعد هناك لى عذر ولا عزاء. عندما قمت من الفراش لكى أدخن سيجارة رجعت فوجدتها قد استدارت، كانت تبكى. لم يكن الأمر مفاجأة فقد كانت ذابلة مهمومة منذ أسابيع. قالت ووجهها مدفون فى المخدات إنها حاولت وإنها لم تعد تستطيع. قالت فى حياد بعد أن هدأت إن ما سيحدث بيننا معا بعد الآن بغيض، إن لم نعرف أن نصنع بحياتنا معا ما نريد، فلنعرف على الأقل متى ننسحب. حدقت فى سقف الغرفة، ينعكس عليه ضوء فجر كاذب، وتصلنى أصوات أجراس خيول السوق البعيدة، لم أجد فى روحى أى كلام منطقى أرد به.

بعد نوبة غضب عبثية قمت بها ذات صباح كى أمتحن ما بقى من حياتنا، قالت وهى تضع رأسها بين يديها على مائدة الإفطار: أنت قادر على أن تضيع حياتك، وأنا لا أملك ذلك ولا أستطيعه. لم أكن أعرف أنك تقف على أرض بعيدة، لا تطولها يداى ولا حبى. سأفتقد دوما الأمل الذى عرفته معك.

كان فراقا متحضراً أليماً راقبتها وهى تقوم بإجراءاته تتوقف عند أشياء عزيزة للحظة ثم تزيحها دون تردد. أراها عادلة قوية، واستعذب إحساس الغريق. بدا التداعى قويا لا أحد يقدر أن يوقفه. من أى مادة صنعت أيامنا الطيبة معاً حتى تحولت هكذا إلى صمت طينى. أحلام الشعر مستحيلة. الحرية والفن أفاق ليست لى. ظهرها نهاية العالم. بذورى فى الأرض ميتة، تبقى الحياة بعدها خرابة أو أرضا جرداء. أركب سمكة وأنزلق من على ظهرها وسط المحيط. راحت من حياتى عيون البنفسج.

قالت معزية: معك رأيت العالم فى ضوء لم أكن أعرف أنه موجود. معك سمعت المعنى والصدى الحقيقى للكلمات. اللحظة وحدها مفردة لا تكون سوى حلم، الحقيقة فى الاستمرار. قالت لى كثيرا هذه المعانى، وبصيغ مختلفة. كتبت أوراقاً كثيرة متناثرة تقول فيها إن كل هذا لا يعنى أنها قد توقفت عن حبى. لكننى كنت أكتشف فى ألم وذهول، وللمرة الأولى، أن لها مشروعها الخاص.. وأنا لم يعد لى مكان فيه.

تخلصت من أوراق كثيرة، مزقتها فى ضيق وغضب إلا الورقة الأخيرة التى تركتها لى على المنضدة فى الصالة يوم ان سافرت. لم أمزقها لكننى لا أدرى أين ذهبت. مكتوبة بحروف كبيرة بقلم اخضر. أحفظ ما كتب فيها لكننى لا أجدها فى أى مكان: «وداعاً حصانى. لا داعى لأن تذهب معى إلى المطار. الحصان لا يذهب إلى المطارات».

(٢٣)

رقصة الديك المذبوح أمام الكهف الذى يبتلع الناس فى «كفر شوق» ظلت هى الصورة التى تسكننى. تشد روحى وعيونى. ويشرد فيها دوماً خيالى. قصة أبى، ومشروع حياته الأدبية الذى لم يتحقق. انتقل الحلم إلى، مسيطراً من الأوراق الكثيرة التى وصلتنى. مشاريع القصائد والقصص التى حاول كتابتها، ولم يكملها أبداً. كل مرة تتركب لها معان جديدة، فى محاولة مستديمة ـ منى ومنه ـ للقبض على معنى لواقع حياتنا. الجحيم الذى عاشه وأعيشه

جاء الطوفان فعلا، ولم يبق إلا أنا وحدى أسرع الخطو فى الشوارع الجانبية، وأتعثر فى الشحاذين الثلاثة الرابضين لى دوما جنب الجدران.

ماذا فعل بأبى ذلك الفقر الموجع الذى عاشه فى صباه وشبابه؟ رحلة البحث عن النقود فى كل الكهوف التى قابلها. النقود التى حرقت روحه وأيامه ثم ضاعت منه. هل كان يهمه حقا أن يترك لى شيئا. وأى شئ! دائرة جهنمية ندور فيها كقدر محتوم. مع ذلك العناء الروحى الذى ورثته، لا أعرف أن أعيش كبقية خلق الله. مع الشقة والنقود المودعة فى البنك أدور فى شعور حارق دائم بعدم الانتماء لشئ. وبأن جسدى يفتقد الخطوط الخارجية. أضيع دوما فى الموقف والمكان. كيف يمكن أن أظل أواجه هذا الفراغ الداخلى الذى يشبه الجوع الذى لم أجربه أبداً.

عندما أرى المؤامرات ومشاريع الحياة الصغيرة التى تحيط بى فى كل مكان. أراها تدور بشكل أو آخر حول النقود أقف ساكناً لا أفهم. كان جنب يدى دائما ما أحتاج من نقود من أمى أو أبى. كان على فقط أن أطلب. أضيق بها وأكره الطلب. أكتفى بأن أظل يوماً أو يومين صامتا ساكنا، ثم تأتى النقود التى لا تشترى لى شيئا مما أريد. وحدى حقا بلا طموح ولا رغبة فى نجاح أو مقاومة.

سادت شقة لاظوغلى حالة بشعة كئيبة بعد سفر كارين، أصبحت مكانا مهجوراً ـ لكننى أعيش فيه. فى ركن منه. الشئ الوحيد الذى ينبض فيه هو تلك الحقيبة الجلدية التى تحوى أوراق أبى. أتنفس هواء متربا ودخان سجائر راكد، أو أخرج. أحياناً أخط على الورق كلمات لا تحمل سوى الفراغ الذى يسكننى. وأرى الحياة كلها لحظات فاتت.

أرتدى ثياباً واحدة لا أغيرها. أخلعها لأرتديها هى مرة أخرى. أدافع بها عن نفسى. وأمسك بما تبقى منى. صبرى على الوجود يثير استغرابى، ولأننى كرهت الغوص فى رخاوة الإشفاق على نفسى والرثاء لها، صرت كقاتل محترف، أتعمد إيذاءها وقطع كل وسائل الاتصال. أدخل أكثر فأكثر إلى شرنقتى التى لا يثيرنى فى داخلها شئ. واستغرق فى نوع من الوعى المؤلم بتفاصيل لا تهم أحداً.

مر بى زمن سائب لا أعرف كيف أحسبه. تتغير الحوادث حولى والفصول. والوعى الحارق المؤلم يتزايد مؤكدا لى انفصالى وعدم قدرتى على المشاركة، كأن حياتى انتهت قبل أن تبدأ. كل الضوضاء والعنف حولى والزحام.. أضواء تنير وتنطفئ وأنا جامد كصنم.

الألم الكبير يصنع الشعراء. هل يمكن أن أصبح الآن شاعراً. الشعراء ينتحرون. العباقرة منهم يموتون مبكراً. أنا أدب على الأرض وآكل الطعام. لا شعر ولا غياب. حضور ـ فقط ـ بلا مذاق. فى الركن الذى يضيق حولى يوماً بعد يوم بحثت عن أشياء بديلة غير النقود والطموح والرغبة فى النجاح فلم أجد. الشعر ضوء فى نهاية النفق. لكنه ضوء مستحيل كما صار البنفسج مستحيلاً.

(٢٤)

سفر حسين إلى الخليج الذى يتم بعد أيام كان هو ما أخرجنى من الشرنقة. اختلط على الأمر والزمن كأننى أغيب فى لحظة من لحظات حلم، أنزل من رصيف الشارع فتقع قدماى فى بئر سحيقة.

عندما سمعت الخبر فكر ت فى نفسى أولاً وقلت لقد تم الحصار الآن أصبحوا كلهم أعدائى.

دق الباب بعنف . لم أكن ﺫ ِ الأيام الأخيرة أفتح أو أرد على أحد. سحبته إلى ركنى المترب و شعلت سيجارة. لم أكن أرتاح للاقتحام حتى من حسين كاظم. أ ـد صعوبة فى الهبوط المفاجئ من وحدتى التى تتصنع الاكا ناء. فتح النافذة المطلة على القاهرة القديمة ففاجأنى الضوء العد ِ وطنين الحياة الشرسة.

خبط بكوب الشاى على الزجاج المترب إلى جوارى وأعلن الخبر. يسافر بعد أسبوع. التذكرة فى جيبه. العمل فى سوبر ماركت كبير. الأجر تقريباً مايقبضه أبوه فى سنة.

فارق كبير بين مانفكر فيه ومايمكن أن نقوله. وقع قلبى فى هوة سحيقة وأنتصبت جالسا فى السرير. فى الفترة الأخيرة كان حسين قد مل من اكتئابى ومزاجى المتقلب، ولم نعد نلتقى إلا نادراً. كنت اسمع إنه دخل مؤخرا فى علاقات ودوائر مدمرة تأكل كرامته ولحمه الحى. لكنه ظل دوما عندما نلتقى متمردا على كل شئ وأى شى. حكاء بارع، قريب الدموع والضحكات، وبقيت أعطيه أماناً لا أعطيه لأحد غيره.

فى البداية عندما كان موضوع سفره مطروحاً من الناحية النظرية قلت له كل شئ. تحدثت كبيراً- عندما كان الشرح ممكناً عن المصائب التى شكلت حياتى. وعن الهم المقيم الذى أثقل قلبى من جراء الخليج ونقود الخليج. حدثته عن سرطان النفط وما فعله فى عائلتى وفى قدرتى على الرؤية وإحساسى بالناس.قلت له فى ليالى السير الطويل على كورنيش النيل إن هذا طريق مرعب، وإن من يستطيع أن يهرب من السير فيه فقد فاز بنفسه وبحظ عظيم. من الواضح أن الكلام كله يسقط قبل أن يصل إليه. لأن ضيقه بالفقر وبالحياة مع أبيه كان عظيماً.

الآن وقد خاض لشهور أهوالاً إدارية وعملية ناهيك عن الأهوال

المادية فلم يعد من الممكن الحديث عن شئ أو مناقشة أى قضية.
الشروط التى يسافر بها ونوع العمل وظروفه كانت كما عرفت مجحفة ومهينة، لكنه لم يعد يستطيع الصبر يوماً واحداً أو احتمال بخار الغضب والضيق الذى يعيش فيه. فلم يبق لنا سوى الاحتفال بتوديعه. بسهرة مفتوحة فى مقهى «الاستقلال».

ذهبت يومها إلى المقهى فى الموعد ثقيلاً مهموماً حزيناً عليه وعلى نفسى. كالعادة كانت السهرة حمقاء وزادتها المناسبة التهابا ودموية. اجتمع خمسة من الشباب غيرنا. ولم يكن أحد يسمع لأحد. كلهم «أسياخ» متشددون لا تستطيع أن تفهم فى النهاية على ماذا يعترضون. ولا إلى أى حد يعتقدون فعلاً فيما يقولون.

بعد عدد من زجاجات البيرة كادوا أن يلتهموا أطراف حسين كاظم. بدا لى هو غريباً هذه الليلة. متماسكاً يخفى سعادة داخلية، وثقة جديدة عليه. كان يدلى بتصريحات عن مشاريع وخطط. ويستشهد بى لدعمه وتأييده.

أكثر الزملاء تشدداً كان هو فى الحقيقة أكثرهم حسداً لحسين على فرصة السفر. فقد كان فقره أشد وظروفه أصعب.

عندما سكر وأفلتت منه نفسه، سحبه الجرسون بعنف خارج المقهى، كان يصيح فينا مهتاجاً «ألأنه ليست هناك قبور فى مصر تأخذوننا لنموت فى الصحراء».

آخر الليل تركنى حسين وقفز فى الميكروباص ولم أشاهده بعد ذلك.

حاشية

حقيبة جلدية جديدة، صغيرة مغطاة بالتراب، بها قصاصات ورق كثيرة، بعضها رسائل قصيرة من كارين . بعضها عليه رسوم بالرصاص غير مفهومة ، أغلبها لأوراق شجر أو صبار . وصور ممزقة لتامر وكارين ، وقطع شمع ، وحبة رمان صغيرة جافة وأشياء أخرى . هذه بعض الأوراق التى كانت فى الحقيبة:

رجفة الجسد

ليته يرتجف
مرة واحدة أخيرة،
كى أعرف أننى حى .
هزة واحدة ـ فقط ـ من الرأس للقدم .
لادبيب .
لم يعد جسدى ـ أبداً ـ يرتجف .
حزن صامت ، معقم ، عازل .
حط على أطراف الأعصاب .
قطع عنى كل اتصال .
واقفا فوق قبر أبى .
جسدى لم يرتجف .
لا دموع ولا ألم .
كنت ـ فقط ـ أريد أن أدخل .
أجلس إلى جواره .

هكذا .. الآن

نبحت مئات من كلاب ميكانيكية .
داخل عربات فاخرة ثابتة.
ليس بداخلها أحد .
رعب الشحاذين الجوعى .
فى قلب قرية سياحية فاخرة
يا أولاد الشوارع اتحدوا .
لم يبق وقت لكى تغطوا عوراتكم .

عيون البنفسج

تحت ضوء نجفة خشبية
رأيت حبى فى وجهها والأصابع
قالت لى العروق تعال .
سكنت عندك فى بيت
أشم فيه نفحة الجبل .
يا نفحة الجبل .
صدرك وسادتى الحرير .
فى داخلك مقعدى المريح .
عيونك مقدسة .
الف جرو حديث الولادة .
يبتسمون فى حضورك .

القرآن .. والشعر

يسقط الشاعر منا صريعا بين إيقاع الشعر العربى القديم الذى يدوى فى روحه ، وبين معارفه ومشاعره الحديثة ، وفى ضميره أيضاً الإبداع الذى حققه شعراء العالم. بين فخامة أسطورية ، وحميمية الصورة والتفاصيل . بين المعرفة العلمية الحديثة التى أحالت الكون إلى صراع وحشى داخل نواة الذرة. صريعا يسقط الشاعر ، يصرخ فى أرض غريبة. لا هو يفصح ولا يسمعه أحد.

من يسمع الشعر الآن؟ لماذا يتوقف أحد للحظة واحدة أمام أجمل أبيات الشعر.

يا سحر القرآن ..

كيف تماسكت آياتك

كيف قادت «قل هو الله أحد» إلى «الله الصمد». أى راحة وسعادة

منحتها آياتك لملايين البشر

أبيات للشاعر على منصور

«من دل أحزانى عليكم

يا فرادى

فى الزحام» .

أبيات للشاعر عماد أبو صالح

يدفعون الأبواب خلفنا

يرفضون – حتى – أن يرموا لنا رائحتنا

من الشرفات.

يصر قمرهم أن يتبعنا

رغم أننا نتخفى منه فى حارات جانبية

ظهر القرية

بلدى لا تعرفنى

داست حوافر البلدوزر

أشجار أبى القديمة.

تفرس الناس فى وجهى.

قالوا: من، وابن من، وبكم؟

شاهدت فى التليفزيون

مذبحة ومقبرة جماعية

وأطفالا لا يتنفسون.

أحسن ما فى التليفزيون

أنه عابر.

صوره تحدث فى مكان بعيد.

شرنقة

شرنقتى
هشة جداً. وضعيفة جداً
لكنها أعجوبة فى إحكام النسيج.
شرنقتى، ولدت بها
لا يسكنها غيرى
لا يدخل إليها أحد.
وحيد فيها ومشغول جداً
حتى أننى لا أعرف.
ميعاد الخروج.

«تمت»

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٧٩٢ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6810 - 6